
الخريدة البهيَّة
في
العقيدة الإسلاميَّة
لأبي البركات أحمد بن محمد بن أحمد الدردير
١١٢٧ - ١٢٠١هـ
إعداد
أ.د/ محمد ربيع محمد جوهري
أستاذ العقيدة كلية أصول الدين بالقاهرة
وعميدها السابق - جامعة الأزهر
وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

الخريدة البهيَّة

في العقيدة الإسلاميَّة

لأبي البركات أحمد بن محمد بن أحمد الدردير

(١١٢٧-١٢٠١هـ)

تأليف

أ.د . محمد ربيع محمد جوهرى

أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين

وعميدها الأسبق

وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم الكتاب

الحمد للّه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير رسل اللّه ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

نحمدك ربنا على ما أنزلت علينا من سورة التوحيد ، فنفيت عن نفسك أصول الكفر الثمانية : الكثرة بمعنى التركيب والعدد ، والنقص بمعنى الاحتياج والقلة ، والعلة والمعلول ، والشبيه والنظير . أما الكثرة والعدد ، فبقولك : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، وأما النقص والقلة فبقولك : ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ، وأما العلة والمعلول ، فبقولك : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ، وأما الشبيه والنظير ، فبقولك : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ .

اللهم لك الحمد .. أنت نور السموات والأرض .. ولك الحمد .. أنت قيام السموات والأرض .. ولك الحمد .. أنت ربُّ السموات والأرض ومن فيهن .. أنت الحق .. ووعدك الحق .. وقولك الحق .. ولقاؤك حق .. والجنة حق .. والنار حق .. والساعة حق .. اللهم لك أسلمت .. وبك آمنت .. وعليك توكلت .

وبعدُ .. فهذا الكتاب : (الخريدة البهية) وشرحها لسيدي أحمد الدردير رحمه اللّه تعالى كنت أدرسه في علم التوحيد مع زملائي تلاميذ المعاهد الدينية الأزهرية الابتدائية في الخمسينات قبل صدور القانون (١٠٣) لسنة ١٩٦١ لتطوير الأزهر .



وكان يرى علماء الأزهر ببصائرهم وخبرتهم أن هذا الكتاب خير أساس لطالب العقيدة الإسلامية لسهولة ألفاظه ، وإشراق عباراته ، ودقة صياغته مع روحانية عظيمة تملأ صفحاته ، ثم إنه يحوى مجموعة ضخمة من تعريفات المصطلحات العلمية التي لا يستغني عنها أبدًا دارس علم الكلام .

وقد سألت عنه في المكتبات ، فلم أجد له نسخاً مما سبق طبعه غير نسختى الشخصية التي درستها في السنة الثالثة والرابعة من المرحلة الابتدائية فاستخرت اللَّه تعالى أن أعيد طبعه ، حتى ينتفع به طلاب العلم .

وكنت قد أعددت كتاب (أرجوزة جوهرة التوحيد) للإمام اللقاني مع شرحها (تحفة المريد على جوهرة التوحيد) للإمام الباجورى رحمهما اللَّه تعالى لطلاب الجامعة ، كليات أصول الدين للبنين والبنات ، بجامعة الأزهر . ووضعت منهجًا لإخراجه وإعداده للطبع . سأسير عليه في إعداد (الخريدة البَّهية) .

وأهم معالم هذا المنهج ما يلى :

١ - تقسيم الكتاب نظمًا وشرحًا إلى (وحدات) حسب المعنى . أضع لكل (وحدة) عنوانًا يجمع ما تحته من معانى الأبيات والشرح . يليه كلمة : (النظم) تكتب بعدها الأبيات مرقمة مضبوطة بالشكل حتى يسهل حفظها لمن أراد ، ثم يأتي بعدها شرح الشيخ الدردير مسبوقًا بكلمة (الشرح) .

٢ - أضع تعليقاتي على النص في حالة الضرورة فقط في الحاشية مستخدما الترقيم في الإحالة ، ولا أثقل الحواشي بكثرة النقل من الحواشي .

٣- إذا طال الشرح وضعت عناوين جانبية ، تفصل المسائل العلمية بعضها عن بعض . فكل ما في الكتاب من عناوين هو من صنعي .



٤- عزو الآيات القرآنية إلى سورها ، وتخريج الأحاديث النبوية ، وترجمة الأعلام الواردة ترجمة موجزة . وذلك لغير المشهورين .

٥- كتبت تعريفًا موجزًا لصاحب النظم والشرح، وهو الإمام أحمد الدردير ؛ وبيانًا مجملًا لأهم مبادئ علم التوحيد .

وأسأل الله العون والقبول .

كتبه

أ د . محمد ربيع محمد جوهري

التعريف بصاحب النظم والشرح

- مؤلفهما : الشيخ أبو البركات أحمد بن محمد بن أحمد العدوى الشهير بالدردير أحد كبار العلماء العاملين ، والأولياء الصالحين ، والمربين المرموقين .

- ولد ببني عديّ بصعيد مصر سنة سبع وعشرين ومائة وألف هجرية .

- حفظ القرآن الكريم وجوَّده على يد أبيه الشيخ (محمد الدردير) فقد كان رحمه اللَّه من أهل القرآن . يعلمه دون أخذ أجر عليه .

- انتقل إلى الأزهر الشريف ينهل من علمائه الأكابر وخاصة الشيخ (شمس الدين الحفني) شيخ الأزهر . فقد درس عليه الحديث ، والمنطق ، والسلوك ، وكان شيخه في الطريق الخلوتي . ودرس الفقه على يد الشيخ (على الصعيدي) وحضر على غيرهما كالشيخ أحمد الصباغ . والشيخ الملَّوى ، والشيخ الجوهري .

- مؤلفاته تزيد على العشرين في الفقه والتوحيد والتفسير ، والسيرة ، والبلاغة ، والقراءات ، والتصوف

- عُيِّن شيخًا للمالكية ، ومفتيًا للمذهب المالكي ، ولُقِّب بمالك الصغير

- كان محبوبًا بين الناس ، مهابًا من الحكام ، مشهورًا بقضاء حوائج الناس ، يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، لا يخاف في اللَّه لومة لائم ، يصدع بالحق دائمًا مع الزهد والتواضع .

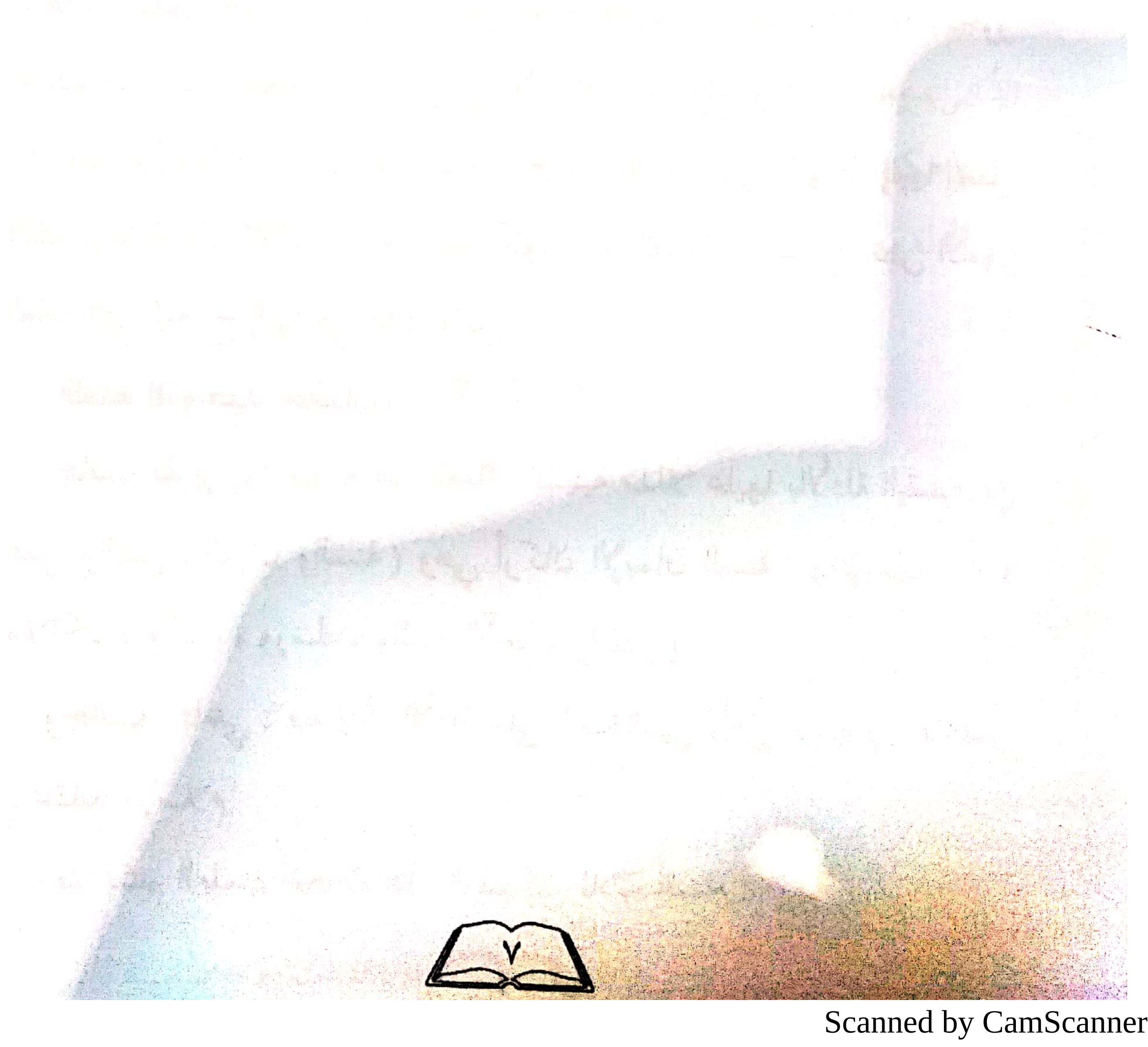
- فتح اللَّه عليه في الطريق الروحي منذ أخذه من شيخه الحفني ، وبثّه في مريديه . ولا أدل على ذلك من هذه الصلوات على رسول اللَّه ﷺ وقصيدة

أسماء اللّه الحسنى التي تقرأ في شرق الأرض وغربها . فهي من بركاته .

- توفي سنة ١٢٠١هـ ودفن في زاويته بجوار الجامع الأزهر

- رحم اللّه الشيخ الدردير . وجزاه على ما قدم خير الجزاء .

❁ ❁ ❁



مبادئ علم التوحيد

تعريفه: هو علم يبحث فيه عن ذات اللّٰه ورسله من حيث ما يجب، وما يستحيل، وما يجوز، وما يوصل إلى ذلك.

أو هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج، ودفع الشُّبه.

موضوعه: ذات اللّٰه من حيث ما يجب له من صفات الكمال، وما يستحيل عليه من صفات النقص، وما يجوز عليه من الأفعال، كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة.

وما يجب للرسل من صفات الكمال البشرى، وما يستحيل عليهم من صفات النقص البشرى التي تتعارض مع مهمتهم المكلفين بها، وما يجوز عليهم من أكل الطعام، والمشي في الأسواق، والزواج والإنجاب

وبدرس ما أخبر به الصادق المصدوق من الأمور التي لا يصل إليها العقل البشري وحده، كعالم البرزخ، وما يكون يوم القيامة، ويدرس بعض الأمور العامة التي يُحتاج إليها في هذه الأمور.

فلعلم التوحيد جانبان:

جانب تقريري: فيه تعرض العقائد الدينية مدللًا عليها بالأدلة اليقينية من العقل والنقل (القرآن والسنة) وهي أركان الإيمان الستة: (الإيمان باللّٰه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر)

وجانب دفاعي: فيه يُرَدُّ بالأدلة على المخالفين لأهل السنة، والطاعنين في عقائد الإسلام

وقد قسَّم العلماء أبحاث هذا العلم إلى ثلاثة أقسام:

١- **الإلهيات** : وتشمل وجود اللَّه تعالى وصفاته

٢- **النُّبوَّات** : وتشمل صفات الرسل ومعجزاتهم ، وكرامات الأولياء . الخ

٣- **السمعيات** : وتشمل الأمور التي لا يستقل العقل بإدراكها إنما نعرفها بالسمع من الرسول كالملائكة ، والجنة ، والحساب ، والشفاعة . الخ

وثمرة دراسته : الوصول إلى سعادة الدارين

ونسبته إلى سائر العلوم : أنه أفضلها ولا شك لتعلقه بذات اللَّه ورسله .

وواضعه : العلماء الأفذاذ الذين استخلصوا العقائد من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة معتمدين على العقل الذي هو مناط التكليف . كالإمام أبي الحسن الأشعري ، والإمام أبي منصور الماتريدي .

واسمه : علم التوحيد ، وعلم أصول الدين ، وعلم العقيدة ، وعلم الفقه الأكبر ، وعلم الكلام .

وحكم الشارع فيه : أن معرفة أركانه الأساسية فرض عين على كل مسلم . ولو بأدلة مجملة ، ويجب وجوبًا كفائيًا أن يتخصص في تفاصيله بعض علماء الأمة .



مقدمة المؤلف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

● النَّظم :

١- يقول راجي رحمةِ القديرِ	أي أحمدُ المشهورُ بالدرديرِ
٢- الحمدُ للَّه العليّ الواحدِ	العالمِ الفردِ الغنيّ الماجدِ
٣- وأفضلُ الصلاةِ والتسليمِ	على النبيِّ المصطفي الكريمِ
٤- وآلِهِ وصحبِه الأطهارِ	لا سيما رفيقُهُ في الغارِ
٥- وهذه عقيدةٌ سنيَّه	سميتُها (الخريدةَ البهيَّة)
٦- لطيفةٌ صغيرةٌ في الحجمِ	لكنها كبيرةُ في العلمِ
٧- تكفيكَ علمًا إن تُرِدْ أن تكتفي	لأنها بزبدةِ الفَنِّ تفي
٨- واللهَ أرجو في قبولِ العملِ	والنفعَ منها ثم غفرَ الزَلِلِ

● الشــرح :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد للَّه الذي نوَّر قلوبنا بمعرفة عقائد التوحيد ، وحرَّر عقولنا من ربقة شوائب التقليد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد بالمعجزات الباهرة ، وعلى آله وأصحابه أولي المناقب الفاخرة .

أما بعدُ : فهذا شرح لطيف على مقدمتي المسمَّاة بالخريدة البهية التي نظمتها في العقائد التوحيدية يوضح معانيها ، ويُشَيِّد مبانيها ، اجتنبت فيه الاختصار المخل ، وأعرضت فيه عن التطويل المُمِل ، واقتصرت فيه على تحرير البراهين ، مع الفوائد التي يزداد بها اليقين ، واللَّه أسأل أن ينفع به كل من



تلقاه بقلب سليم، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، إنه المولى الرءوف الرحيم، فأقول وما توفيقي إلا باللَّه العلى العظيم .

شرح البسملة :

(**بسم اللَّه الرحمن الرحيم**) أي أؤلف . وإنما قدرنا المتعلق فعلًا ؛ لأن الأصل في العمل للأفعال، ومتأخرًا لأن تقديم المعمول يفيد الاختصاص، وخاصًا لأن كل شارع في شيء ينبغي له أن يقدر ما جعلت البسملة مبدأ له، ولإفادة حصول البركة لجميع أجزاء الفعل . والباء للاستعانة، أو للمصاحبة على وجه التبرك .

والاسم لغة : ما دلَّ على مُسَمَّى . وعند النحاة، ما دلَّ على معني في نفسه غير مقترن بزمان وضعًا . وهو مشتق عند البصري من السُّمو، وهو العلو، لأنه يعلو به مسماه من الخفاء . أي يظهر فأصله : سِمْو بكسر فسكون . فخفف بحذف لامه، وعُوِّض عنها همزة الوصل بعد تسكين فائه . وعند الكوفي من السِّمة وهي العلامة لأنه علامة على مسماه . وأصله : وسم فخفف بحذف فائه، ثم عُوِّض عنها همزة الوصل . والمراد به هنا : المسمى أي مستعينًا بمسمى اللَّه . والإضافة للبيان .

واللَّه : عَلَم على الذات الواجب الوجود الخالق العالم .

والرحمن الرحيم : صفتان مُشَبَّهتان بنيتا للمبالغة من رحم بالكسر إما بتنزيله منزلة اللازم بأن يقصد إثباته للفاعل فقط من غير اعتبار تعلقه بمفعول، وإما جعله لازمًا بأن ينقل إلى فَعُلَ بالضم، وإنما احتيج لذلك لأن الصفة المشبهة إنما تصاغ من اللازم .

والرحمة : رِقَّة القلب أي رأفته . وهي تستلزم التفضل والإحسان . فهو



غايتها ، وهي مبدؤه . فيراد منها هنا : الغاية ؛ لاستحالتها عليه تعالى . أي الثابت الفضل والإحسان كثيرًا . وكذا كل اسم من أسمائه تعالى يوهم ظاهره خلاف المراد يراد منه غايته . ثم إن أريد : مريد ذلك كمريد الإنعام ، فصفة ذات ، وإن أريد : الفاعل كالمنعم ، فصفة فعل .

وقدَّم الرحمن لأنه خاص به تعالى إذ لا يطلق على غيره تعالى ، ولأنه أبلغ إذ معناه : المنعم بجلائل النعم . كمًا وكيفًا ، بخلاف الرحيم ، فإن معناه المنعم بدقائقها كذلك ، وجلائل النعم : أصولها كالجود ، والإيمان ، والعافية ، والرزق ، والعقل ، والسمع ، والبصر ، وغير ذلك . ودقائقها : فروعها كالجمال ، وكثرة وزيادة الإيمان ، ووفور العافية ، وسعة الرزق ، ودقة العقل ، وحدة السمع والبصر ، وغير ذلك .

والمعنى أنه تعالى من حيث إنه منعم بجلائل النعم يسمى : الرحمن . ومن حيث إنه منعم بدقائقها يسمى : الرحيم .

(**يقول**) هو من باب نصر . فأصله يَقْوُل بسكون فائه وضم عينه فخفف بنقل حركة العين إلى الفاء (**راجي رحمة**) بإضافة الوصف إلى معموله أي المؤمل المنتظر إنعام (**القدير**) أي دائم القدرة ، فهو صفة مشبهة أو الكثير القدرة بمعني الاقتدار ، فيكون صيغة مبالغة (**أي أحمد**) بن محمد بن أحمد . أي حرف تفسير وبيان لراجي فما بعد أي عطف بيان ، وقيل عطف نسق بناء على أنها من حروف العطف ، وهو قول ضعيف (**المشهور**) أي الذي اشتهر (**بـ**) لقب جده (**الدردير**) بفتح الدال الأولى وكسر الثانية بينهما راء ساكنة وكذا اشتهر أولاد الجد كلهم بهذا اللقب .



شرح الحمدلة :

(الحمد للّٰه) وهو ما بعده إلى آخر الكتاب مقول القول في محل نصب ، وأل فيه جنسية ، أو استغراقية ، ولام للّٰه للاستحقاق .

والحمد لغة : هو الثناء بالجميل على جميل اختياري على جهة التعظيم سواء تعلق بالفضائل أم بالفواضل(١) .

وفي عرف أهل الشرع : فعلٌ يُنْبِئُ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا ، ولو على غير الحامد ، وسواء كان الفعل قولا باللسان ، أو اعتقادا بالجنان ، أو خدمة بالأركان فبينهما العموم والخصوص الوجهي لأن مورد اللغوي خاص وهو اللسان ومتعلقه عام ، ومورد العرفي عام ومتعلقه خاص ، وهو الإنعام .

وأما الشكر لغة : فهو الحمد عرفًا وأما الشكر عرفًا فهو صرف العبد جميع ما أنعم اللّٰه به عليه من عقل وسمع وغيرهما إلى ما خلق لأجله . وهو أخص مطلقًا من الحمد والشكر اللغوي ، لاختصاصه باللّٰه تعالى ، وبكونه في مقابلة النعم التي على الشاكر فقط .

(العلى) من العلو وهو الرفعة فأصله : عليو اجتمعت الياء والواو ، وسبقت إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت فيها الياء ، وعلوه تعالى معنوي عبارة عن تنزيهه تعالى عن كل نقص ، فيتضمن اتصافه تعالى بجميع صفات السلوب ، ولك أن تقول علوه تعالى عبارة عن تنزيهه عن كل نقص واتصافه بكل كمال . فيشمل صفات المعاني أيضًا .

(الواحد) أي المنزَّه عن الشريك في الذات ، والصفات ، والأفعال .

---

(١) **الفضائل :** هي النعم التي لا تتوقف على تعدي أثرها للغير . كالعلم والقدرة والحُسْن .
والفواضل : هي النعم التي تتوقف على تعدي أثرها للغير كالتعليم والكرم .



(**العالم**) بما يكون ، وما لا يكون ، وبما هو كائن ، أي موجود.

(**الفرد**) أي الواحد ذاتًا ، وصفات ، وأفعالًا .

(**الغنى**) عن كل شيء .

فلا يفتقر إلى محل ، ولا مخصص ، ولا معين ، ولا وزير ، ولا غير ذلك ، فالغني المطلق يتضمن اتصافه تعالى بجميع الصفات السلبية والكمالية .

(**الماجد**) قيل معناه الكريم الواسع العطاء ، وقيل : الشريف العظيم . ولا يخفى ما في هذا البيت من براعة الاستهلال .

الصلاة على النبي وآله وصحبه :

(**وأفضل**) أي أتم (**الصلاة**) وهي لغة الدعاء بخير . فإذا أضيفت إليه تعالى كان معناها زيادة الإنعام المقرون بالتعظيم والتبجيل (**التسليم**) أي التحية (**على النبي**) المعهود عند الإطلاق ، وهو سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ .

والنبيُّ : إنسان ذكر حر أوحي إليه بشرع أي أحكام سواء أمر بتبليغها أي إيصالها للمكلفين أم لا . فإن أمر بذلك فرسول أيضًا فالنبي أعم من الرسول .

وأصله نبيء بالهمز كما يدل عليه رواية قراءته بالهمز في التشهد فقلبت الهمز ياء من النبأ ، وهو الخبر بمعنى المفعول ، كما يدل عليه التعريف المتقدم أي إن اللّٰه تعالى قد أخبره بأحكام ويحتمل أن يكون بمعني الفاعل أي إنه مخبر عن اللّٰه تعالى ، ويحتمل أن أصله نبيو من النبوة أي الرفعة . قلبت الواو ياء لما مر ، وأدغمت فيها الياء بمعنى : مرفوع الرتبة أي مرتفعها فهو بمعني المفعول ، أو الفاعل أيضًا .

(**المصطفى**) اسم مفعول من الاصطفاء، وهو الاختيار فمعناه المختار



(**الكريم**) من الكرم وهو صفة تقتضي الإعطاء لا في نظير شيء، أو هو نفس الإعطاء المذكور، وقد يراد بالكريم الطيب وهو الأنسب هنا. أي: فهو طيب الأصل، وطيب الخَلْق، وطيب الخُلُق عليه الصلاة والسلام.

(**و**) أفضل الصلاة والتسليم على (**آله**) المراد بهم في مقام الدعاء كما هنا: أتباعه مطلقًا، وقيل: الأتقياء منهم. وأما في مقام الزكاة فقال الإمام مالك رضى اللّٰه عنه هم بنو هاشم فقط، وقال الإمام الشافعي رضى اللّٰه عنه: بنو هاشم والمطلب[1].

وأصله عند سيبويه أهل قلبت هاؤه همزة، ثم الهمزة ألفا لسكونها وانفتاح ما قبلها كما في آدم. وعند الكسائي: أول كجمل: من آل يئول إذا وجع فقلبت الواو ألفًا لتحركها، وانفتاح ما قبلها، ولا يضاف الحصن إلا لمن له شرف من الذكور العقلاء، فلا يقال آل الإسكافي، ولا آل فاطمة، ولا آل الحصن.

(**و**) على (**صحبه**) اسم جمع لصاحب بمعني صحابي وهو: من اجتمع به ﷺ مؤمنًا ومات على إيمانه، وقيل جمع له. ورُدَّ بأن فاعلا لا يجمع على فَعْل. فلا يقال في عالم: عَلْم وهكذا.

(**الأطهار**) إما جمع طاهر على غير قياس؛ لأن فاعلا لا يجمع على أفعال أيضًا، فلا يقال عالم وأعلام، وكامل وأكمال، وإما أن يكون جمعًا لطهر بمعني طاهر من باب إطلاق المصدر وإرادة اسم الفاعل، كعدل بمعني عادل. ومعناه المطهرين من دنس المعاصي والمخالفات، وعطفهم على الآل من

---

(١) وعند الأحناف هم خمسة من بني هاشم: آل عليّ، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس، وآل الحارث بن عبد المطلب.



عطف الخاص على العام لمزيد من شرفهم على غيرهم (**لا سيما رفيقه في الغار**) لا من لا سيما نافية للجنس، وسي كمثل وزنًا ومعني اسمها، وخبرها محذوف وجوبًا. أي ثابت. وأصله سوى فقلبت الواو ياء لاجتماعها مع الياء وسبق إحداهما بالسكون، وأدغمت في الياء، ويجوز في الاسم الواقع بعد ما الجر والرفع مطلقًا، والنصب إن كان نكرة وقد روى بالأوجه الثلاثة قوله: ولا سيما يوم بدارة جلجل[1]، والجر أرجحها. وهو على إضافة سي إليه وما زائدة بينهما مثلها في (**أيما الأجلين**)، وأما الرفع فهو على أنه خبر لمبتدأ محذوف وما موصولة أو نكرة موصوفة بالجملة بعدها. والتقدير ولا مثل الذي هو رفيقه، ولا مثل شيء هو رفيقه. وسي مضاف وما مضاف إليه فعلى كل من وجهي الجر والرفع تكون فتحة سي فتحة إعراب؛ لأن اسم لا النافية للجنس إذا كان مضافًا يكون منصوبًا. وأما نصب النكرة بعدها فعلى التمييز، وما كافة عن الإضافة، والفتحة فتحة بناء مثلها في: لا رجل. والمعني والصلاة والسلام على الصحب لا مثل الرفيق فإن الصلاة عليه أتم منها عليهم. يعني أطلب ذلك من اللَّه تعالى.

والمراد برفيقه في الغار أبو بكر الصديق رضى اللَّه تعالى عنه. خصَّه بالذكر بعد دخوله في عموم الأصحاب تنويهًا بعظم شأنه، إذ هو شيخ الصحابة وأفضهم على الإطلاق، وفي ذكر مرافقته في الغار إشارة إلى ذلك أيضًا.

والغار: ثقب في أعلى جبل ثور على مسيرة نحو ساعة من مكة دخله النبي ﷺ هو وأبو بكر حين خرجا مهاجرين من مكة إلى المدينة، فذهب

---

(١) هذا عجز بيت لامرئ القيس. وصدره: ألا رُبَّ يوم صالح لك منها. وبدارة جلجل: اسم موضع معروف.



المشركون في طلبهما، واقتفوا أثرهما حتي جاءوا إلى الغار، فانقطع الأثر، فجعلوا يفتشون حتى قال بعضهم لبعض: انظروا الغار فقالوا: ليس في الغار أحد، ولو نظروا أدني نظرة لرأوهما، فاشتد الكرب على أبي بكر رضى الله عنه خوفًا على رسول الله ﷺ، وقال: إنهم لو نظروا تحت أقدامهم لرأونا. فقال النبي عليه الصلاة والسلام، لا تحزن إن الله معنا، فأعمى الله تعالى أبصارهم عنهما، كما أعمى بصائرهم.

قيل: لما دخلا الغار بعث الله حمامتين، فباضتا على فم الغار، والعنكبوت فنسجت عليه، حتى قال بعضهم لبعض: ما بالكم بالغار إن العنكبوت قد خيمت عليه، والحمام قد باض على فمه. يعني أنه لا يمكن دخولهما الغار والحالة هذه ولا يمكن نسج ولا بيض بعد دخوله وإلى ذلك أشار صاحب البردة بقوله[1]:

وما حَوَى الغارُ مِن خيرٍ ومِن كرمٍ ... وكلُّ طَرْفٍ من الكفارِ عنه عمى

فالصِّدقُ في الغار والصديقُ لم يَرِما ... وهم يقولون ما بالغار من أَرِمِ

ظنُّوا الحمامَ وظنُّوا العنكبوتَ على ... خيرِ البريَّةِ لم تنْسِجْ ولم تحِمِ[2]

قوله: فالصدق أي صاحب الصدق. وهو النبي ﷺ، وقوله: لم يرما أي لم يبرحا ولم ينفكا عنه، ومعني أرم أحد.

---

(١) هو الإمام شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد البوصيري، نسبة إلى بوصير بيني سويف بمصر، وأصله من المغرب، ودفن بالإسكندرية (٦٠٨- ٦٩٦هـ) وديوانه مطبوع، وأشهر شعره: البردة والهمزيَّة التي أولها: (كيف ترقى رقيك الأنبياء). الأعلام / ٦.

(٢) (من خير) يقصد رسول الله، (ومن كوم) يقصد أبا بكر، (وكل طرف) أي بصر، (من أرم) من أحد، (لم تنسج) راجع للعنكبوت، (ولم تحم) راجع للحمام.



أهمية الكتاب :

(**وهذه عقيدة**) عطف على جملة الحمد لله . واسم الإشارة عائد على العبارات المتعلقة ذهنًا ، نزلها منزلة الحاضر المحسوس بالبصر فأطلق عليها لفظ الإشارة الموضوع لكل حاضر محسوس ، واختار اللفظ الموضوع للقريب للتنبيه على أنها قريبة التناول سهلة الحصول ، ولذا أفرد الخبر مع أنها في نفسها عقائد كثيرة (**سنية**) نسبة إلى السنا بالقصر . وهو النور . يعني أنها واضحة الدلالة على معانيها .

(**سميتها الخريدة البهية**) الجملة صفة عقيدة . والخريدة في الأصل اللؤلؤة التي لم تثقب ، والبهية نعت الخريدة ، والبها : الضياء . واستعار لها هذا الاسم ليطابق الاسم المسمى . ثم ذكر من نعوتها أيضًا ما يقتضي الرغبة في تناولها فقال هي (**لطيفة**) من اللطف وهو ضد الكثافة ، من لطُف ككرم : دقَّ أو رقَّ ، فاللطيف : الصغير الحجم . والرقيق القوام ، أو الشفاف الذى لا يحجب ما وراءه . كالزجاج : فإذا أطلق بهذا المعني على الله تعالى فمعناه : العالم بخفيات الأمور . ولما مر من أن اللفظ إذا أوهم خلاف المراد في حقه تعالى يراد منه لازمه ، وأما لَطَفَ كنصر فمعناه أحسن وأنعم . ومعناه في حقه تعالى ظاهر ، أي المحسن المنعم على عباده .

وبهذا علمت وجه من فسّر اللطيف بالعالم بخفيات الأمور ، ووجه من فسّره بالبر المحسن لعباده . والمراد هنا أنها قليلة الألفاظ ، أو سلسة الألفاظ ، أو واضحتها . والكل صحيح . وعلى الأول فقوله : (**صغيرة في الحجم**) أي القدر وصف كاشف ، أبياتها أحد وسبعون بيتًا .

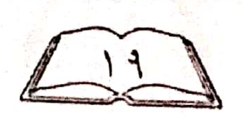
ولما كان هذا الوصف يوهم أنها قليلة العلم ، استدرك عليه بأن رفع هذا

التوهم بقوله (**لكنها كبيرة**) أي عظيمة (**في العلم**) أي المعاني المدلولة لها ، وذلك لأنها اشتملت على بيان ما يجب للَّه تعالى ، وما يستحيل ، وما يجوز ، وعلى مثل ذلك في حق رسله عليهم الصلاة والسلام ، وعلى البراهين القطعية التي يخرج بها المكلف من ربقة التقليد إلى نور التحقيق حتى لا يكون في إيمانه خلاف . وسيأتي بيان الخلاف في إيمان المقلد إن شاء اللَّه تعالى ، وعلى الرد على أهل الضلال تصريحًا تارة ، وتلويحًا أخري ، وعلى السمعيات ، وعلى شيء من التصوف الذي هو حياة النفوس كما سترى ذلك كله إن شاء اللَّه تعالى مفصلًا .

ولذا قال مستأنفًا في جواب سؤال مقدر نشأ مما قبله تقديره : هل تكفي هذه العقيدة المكلف في دينه كما يدل عليه هذا الوصف الذي قدَّمته ، أو هذا من باب المبالغة (**تكفيك علمًا**) تمييز محول عن الفاعل ، أي يكفيك العلم المستفاد منها في دينك (**إن تُرِدْ أن تكتفي**) أي بها عن غيرها من المطولات وذلك (**لأنها بزبدة**) أي بخلاصة ومحصل (**الفن**) المؤلفة هي فيه وهو فن عقائد الإيمان ، ويسمي علم التوحيد ، وعلم أصول الدين ، وعلم العقائد . وهو علم يقتدر به علي إثبات العقائد الدينية المكتسبة من أدلتها اليقينية . وموضوعه : ذات الإله تعالى . وقيل : الممكنات . وقيل : غير ذلك . وغايته : معرفة اللَّه سبحانه وتعالى ، والفوز بالسعادة الأبدية (**تفي**) أي توفي به لما تقدم .

(**واللَّه أرجو**) قدَّم الاسم الأعظم لإفادة الاختصاص ؛ إذ تقديم المعمول يفيد ذلك أي لا أرجو إلا اللَّه تعالى .

والرجاء : تعلق القلب بحصول مرغوب فيه في المستقبل مع الأخذ في



الأسباب ، وهو ممدوح شرعًا ، فإن لم يأخذ في الأسباب فطمع ، وهو مذموم شرعًا (**في قبول العمل**) الذي منه تأليف هذه العقيدة . وقبول الشيء الرضا به وعدم ردِّه .

(**و**) أرجوه تعالى (**النفع**) هو ضد الضر (**منها**) أي من هذه العقيدة أي بها أي أرجوه تعالى أن ينفع بها كل من قرأها ، أو طالعها وحصَّلها أو كتبها ، ويصح أن تكون من ابتدائية وهي ومجرورها حال من النفع . أي حال كون النفع حاصلًا وناشئًا منها .

(**ثم**) أي وأرجوه (**غفر**) أي ستر (**الزلل**) جمع زلة بالفتح مصدر زل بفتح الزاي أيضًا يزل بكسرها يعني المعاصي . وسترها صادق بمحوها من الصحف ، وبعدم المؤاخذة بها ، وإن كانت موجودة فيها ، وورد في السنة ما يدل لكل[1] . والمرجو من سعة كرمه تعالى الأول .

ولما كانت مباحث هذا الفن تتوقف على معرفة أقسام الحكم العقلي الثلاثة أعني الوجوب والاستحالة والجواز بدأ ببيانها فقال :



---

(١) مما يدل على محوها من الصحف : قوله ﷺ : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » . رواه الترمذي في البر والصلة ٤/ ٣٥٥، ومما يدل على عدم المؤاخذة بها ، وإن سجلت في الصحف قوله ﷺ : « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه . فيقول : أعملت كذا وكذا؟ فيقول : نعم . ويقول : عملت كذا وكذا؟ فيقول : نعم . فيقرره . ثم يقول : إني سترت عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم » . رواه البخاري في التوحيد ، الفتح ١٣/ ٤٨٣.

الحكم وأقسام

● النظم :

٩- أقسام حُكِم العقلِ لا مَحَالهْ	هي الوجوبُ ، ثم الاستحالهْ
١٠- ثم الجوازُ ثالثُ الأقسامِ	فافهمْ مُنِحتَ لذةَ الأفهامِ
١١- وواجبٌ شرعًا على المكلَّفِ	معرفةُ اللهِ العَليِّ فاعرفِ
١٢- أي يَعرفُ الواجبَ والمحالا	مع جائزٍ في حقِه تعالى
١٣- ومِثل ذَا في حقِّ رُسْلِ اللَّهِ	عليهم تحيَّةُ الإلهِ
١٤- فالواجبُ العقليَّ ما لم يقبلِ	الانتفا فى ذاتِه فابتهلِ
١٥- والمستحيلُ كلُّ ما لم يقبلِ	في ذاته الثبوتَ ضدَّ الأولِ
١٦- وكلُّ أمرِ قابلٍ للانتفا	وللثبوتِ جائزٌ بلا خفَا

● **الشـــرح :**

(**أقسام الحكم العقلي**) مبتدأ خبره محذوف أي ثلاثة يدل عليه قوله الآتي ثالث الأقسام ، وجملة هي الوجوب الخ استئنافية لبيان الأقسام ، ويصح أن تكون هي الخبر .

والأقسام جمع قِسْم بكسر فسكون ، وهو : ما اندرج مع غيره تحت كل أو كلي . والكل : ما تركب من جوهرين فأكثر . والكلي : ما صدق على كثير .

ويسمى المندرج تحت الكل : جزءًا أو بعضًا ، والمندرج تحت الكلي يسمى : جزئيًا .

ويسمى مورد القسمة وهو الكل أو الكلي : مَقْسِمًا بفتح فسكون فكسر .

والتقسيم : التمييز والتفصيل . أي جعل الشيء أقسامًا .

وعلامة تقسيم الكل إلى أجزائه : صحة انحلاله إلى الأجزاء التي تركب



منها ، وعدم صحة حمل المقسم على الأقسام .

وعلامة تقسيم الكلي إلى جزئياته : صحة حمل المقسم على كل من الأقسام . نحو زيد إنسان ، وعمرو إنسان .

والحكم : إما شرعي . وهو : خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالطلب ، أو الإباحة ، أو الوضع لهما .

وإما غيره وهو : إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه ، والحاكم به إما العقل ، وإما العادة .

فإن كانت العادة فعادى . والحكم العادي : إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه بواسطة التكرر بينهما على الحس . كإثبات أن النار محرقة ، وأن الطعام يشبع ، وليس المراد من هذا أن النار مثلا هي المؤثرة ، إذ التأثير لا دلالة للعادة عليه أصلا ، وإنما غاية ما دلت عليه العادة : الربط بين أمرين . أما تعيين فاعل ذلك فليس للعادة فيه مدخل ولا منها يتلقى علم ذلك ، كما قاله الإمام السنوسي[١] رحمه الله تعالى . وسيأتي في عقد الوحدانية ما يتعلق باعتقاد ذلك .

وإن كان العقل فعقلي وهو : إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه من غير توقف على تكرار ولا استناد إلى شرع ، وخرج بهذا القيد الأخير حكم الفقيه المستند إلى الشرع كإثبات الوجوب للصلاة المستند إلى خطاب الله تعالى فخرج بقوله حكم العقل الحكم الشرعي والعادي .

---

(١) السنوسي هو محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب – عالم تلمسان في عصره ، من كتبه : (عقيدة أهل التوحيد) ، ويسمى العقيدة الكبرى : و (أم البراهين) ويسمى العقيدة الصغرى ، وله غير ذلك في التوحيد والمنطق والنحو والتفسير والرياضة والطب ت ٨٩٥ – الأعلام ٧/ ١٥٤.

والعقل : سرٌّ روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية . ومحله القلب ، ونوره في الدماغ ، وابتداؤه من حين نفخ الروح في الجنين ، وأول كماله البلوغ ، ولذا كان التكليف بالبلوغ ، هذا هو الصحيح الذي عليه مالك والشافعي رضى اللّٰه عنهما وهو مراد من قال : هو لطيفة ربانية تدرك به النفس إلخ .

وقيل : هو قوة للنفس معدة لاكتساب الآراء أي الاعتقادات .

وقيل : هو من قبيل العلوم قال القاضي[1] : هو بعض العلوم الضرورية ، وهو العلم بوجوب الواجبات ، واستحالة المستحيلات ، وجواز الجائزات ، ومجاري العادات[2] . كالعلم بوجوب افتقار الأثر إلى المؤثر ، والعلم باستحالة اجتماع الضدين ، وارتفاع النقيضين . وهذا تفسير لقول من قال هو العلم ببعض الضروريات . وعلى هذين القولين[3] فهو من قبيل العرض .

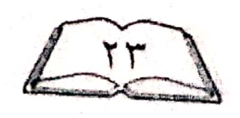
وقوله : (**لا محالة**) أي لا تحول ولا انفكاك عن كونهما ثلاثة يعني أنها ثلاثة لا أقل ولا أكثر . هذا على الإعراب الأول ، وأما على الثاني فالمعني أنها هي هذه بعينها لا غيرها (**هي الوجوب**) أي وما عطف عليه . وهو : عدم قبول الانتفاء (**ثم الاستحالة**) بالدرج للوزن وهي : عدم قبول الثبوت

---

(١) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر . انتهت إليه رئاسة المذهب الأشعري : له مناظرات مع علماء النصارى من كتبه : إعجاز القرآن ، والانصاف ، والتمهيد في الرد على الملاحدة والمعطلة والخوارج والمعتزلة ، ت ببغداد ٤٠٣ هـ - الأعلام ٦/ ٧٦.

(٢) أي وكالعلم بالأمور التي جرت بها العادة . ككون النار محرقة ، والأكل مشبع .

(٣) أي القول بأنه قوة للنفس ، والقول بأنه من قبيل العلوم .



(ثم الجواز) وهو (ثالث الأقسام) وهي قبول الثبوت والانتفاء[1]، وستتضح معانيها زيادة إيضاح في تعريف الواجب والمستحيل والجائز.

وكلمة ثم هنا وفي سائر ما يأتي لمجرد الترتيب في الذكر، والتدرج في مدارج الارتقاء بذكر ما هو الأولى فالأولي دون اعتبار تراخ بين المتعاطفين، ولا بعدية في الزمان.

فإن قلت: تقسيم الحكم العقلي إلى الوجوب والاستحالة والجواز لا يصح أن يكون من تقسيم الكل إلى أجزائه، إذ لا ينحل الحكم العقلي إليها، ولا من تقسيم الكلي إلى جزئياته؛ لأنه لا يصح حمله على كل منهما إذ لا شيء منها بحكم عقلي لما مرَّ من تفسير الحكم بإثبات أمر لأمر أو نفيه عنه.

والحاصل: أنا لا نسلم أنها أقسام للحكم لأن الحكم إما إدراك وقوع النسبة أو لا وقوعها، فيكون كيفية وصفة للنفس كما هو التحقيق، وإما إيقاع أو انتزاع فيكون فعلا من أفعال النفس، وأيًّا ما كان فهو بسيط، فلا يكون مركبا، حتى يكون من الأول، وليست هذه جزئياته، حتى يكون من الثاني.

قلت: إن في عبارتهم هذه مسامحة. والمراد أن كل ما حكم به العقل من إثبات أو نفي لا يخرج عن اتصافه بواحد من هذه الثلاثة فلما كان لا يخرج عن اتصافه بها جعلوها أقسامًا له تجوزًا.

(فافهم) أي اعرف هذه الأقسام الثلاثة حق معرفتها؛ لأن على معرفتها مدار الإيمان بالله تعالى وبرسله عليهم الصلاة والسلام (مُنِحت) أي أعطيت أي أعطاك الله تعالى (لذة) أي حلاوة (الأفهام) بفتح الهمزة جمع فهم. وهو الإدراك أي العلم والمعرفة؛ فإن من أعطى لذة العلوم والمعارف، فقد أعطي

---

(١) فكل من الوجوب والاستحالة صفة سلبية: أما الجواز فصفة ثبوتية أي اعتبارية.

خيري الدنيا والآخرة .

وجوب معرفة اللّٰه تعالى :

(**وواجب شرعًا**) أي وجوب شرع فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، فانتصب انتصابه . فهو منصوب على أنه مفعول مطلق ، أي وجوبًا مستفادًا من الشرع أي الشارع ، يعني أنه يجب وجوبًا شرعيًا خلافًا للمعتزلة القائلين إن معرفة اللّٰه تعالى واجبة بالعقل[1] (**على المكلف**) من الثقلين الإنس والجن .

والتكليف : إلزام ما فيه كلفة . وقيل : طلب ما فيه كلفة . فلا تكليف بالمندوب والمكروه على الأول الصحيح بخلاف الثاني ، ولا تكليف بالمباح اتفاقًا .

والمكلف : البالغ العاقل الذي بلغته الدعوة[2] (**معرفة اللّٰه العلي**) بالمنزلة .

والمعرفة والعلم بمعني واحد على الصحيح ، وهو الإدراك الجازم المطابق للواقع لموجب . فشمل الضروري والنظري ، وخرج بقيد الجازم الظن ، وبالمطابق الاعتقاد الفاسد . كاعتقاد الفلسفي قِدَم العالم ، وبقوله لموجب بكسر الجيم ، أي مقتض من دليل أو حس أو وجدان الاعتقاد الصحيح ، كاعتقاد سنية صلاة العيدين .

والذي يكفي في المعرفة الدليل الجملي اتفاقًا وهو المعجوز عن تفصيله وحل الشبه عنه ، كأن يعرف وجوده تعالى بكونه خالقًا للعالم ، وأما التفصيلي

---

(١) أي وجاء الشرع مؤكدًا للعقل . فهم لم ينفوا الشرع .

(٢) فأهل الفترة ناجون ؛ لقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ، ومنهم أبواه ﷺ ويشترط في التكليف أيضًا : سلامة الحواس .

وهو المقدور فيه على ذلك ، فلا يجب عينًا بل وجوبًا كفائيًا لصون الدِّين بدفع الخصوم .

وأما التقليد وهو : الأخذ بقول الغير من غير حجة أي الاعتقاد الجازم المتمسك فيه بمجرد قول الغير . فقد اختلف فيه :

فقيل : إنه يكفي في عقائد الإيمان ، وهو الصحيح ، فإيمان المقلد صحيح ، وعليه فهل يجب النظر فيكون مع صحة إيمانه عاصيًا بترك النظر الموصل للمعرفة ، وهو الصحيح كما يفهم من قولنا معرفة اللَّه أولا بل هو شرط كمال .

وقيل : لا يكفى فالمقلد كافر .

وقيل : يكفى إن قلد القرآن والسنة القطعية وفيه نظر .

وذهب بعضهم إلى تحريم النظر ؛ لأنه مظنة الوقوع في الشُّبَهِ والضلال ، وليس بشيء .

واعلم أن المعرفة هي أول واجب على المكلف إذ جميع الواجبات متوقفة عليها ، وقوله (**فاعرف**) أي اعرف أنها واجبة بالشرع لا بالعقل خلافًا للمعتزلة .

ولما كانت معرفة اللَّه تعالى عبارة عن معرفة ما يجب في حقه تعالى ، وما يستحيل ، وما يجوز . لا معرفة حقيقة الذات العلية لعدم إمكان ذلك ، ولعدم تكليفنا بذلك . فسَّر المعرفة بما هو المراد فقال : أي يعرف وهو وان كان مرفوعًا لتجرده من ناصب وجازم إلا أن المعني على تقدير أن المصدرية نحو : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، أي معرفة اللَّه تعالى هي معرفتك (**الواجب**) أي الثابت الذي لا يقبل الانتفاء في حقه تعالى (**والمحالا**) كذلك أي



المستحيل والألف للإطلاق (**مع**) معرفة (**جائز في حقه**) أي في الأمر الحق الذي ينسب إليه (**تعالى**) فافهم وقد حذفه من الأولين لدلالة الثالث عليه كما أشرنا له .

(**و**) واجب شرعًا على المكلف (**مثل ذا**) أي معرفة مثل هذا المذكور من الواجب والمستحيل والجائز أي في مطلق ما ذكر بقطع النظر عن الحقائق والأدلة (**في حق رسْل اللّٰه**) بسكون السين للوزن (**عليهم**) بكسر الميم (**تحية الإله**) تعالى .

أقسام الحكم العقلي :

ثم شرع في تعريف الواجب والمستحيل والجائز التي يجب معرفتها في حق من ذكر . ومنه يعرف تعريف الوجوب والاستحالة والجواز . وقد قدَّمه أيضًا[1] فقال :

(**فالواجب**) أي الثابت (**العقلي**) من ذات أو صفة أو نسبة (**ما**) أي الأمر الثابت الذي (**لم يقبل الانتفا**) بالقصر للضرورة . أي لا يقبل الزوال (**في ذاته**) أي بالنظر لذاته ، لا لشيء آخر . فخرج ما تعلق علم اللّٰه بوجوده[2] (**فابتهل**) بكسر اللام أ يتضرع واطلب من اللّٰه تعالى معرفة ما ينفعك ، وهذا التعريف أخصر وأوضح وأحسن[3] من قولنا : ما لا يتصور في العقل عدمه وإن اشتهر .

---

(١) أي عند قوله في المتن : هي الوجوب ثم الاستحالة .. إلخ .

(٢) أي من الممكنات فإنه يجب وجوده ، ويسمى الواجب لغيره .

(٣) هو أخصر لأنه أقل حروفًا ، وأوضح لأنه لا تجوُّز فيه ، وأحسن لأنه يشمل صفات السلوب والمعنوية بخلاف تعريف السنوسي . فإنه مطول ، وفيه تجوُّز ، حيث أطلق التصور ، وأريد التصديق ، وفيه قصور لعدم شموله السلوب والمعنوية .



وهو **قسمان** : ضروري وهو : ما لا يتوقف على نظر واستدلال كالتحيز للجرم أي أخذه قدر ذاته من الفراغ .

ونظري : وهو ما توقف على ما ذكر . كالقدم للَّه تعالى . فكل منهما لا يقبل الانتفاء لذاته .

(**والمستحيل**) السين والتاء زائدتان للتأكيد (**كل ما**) أي أمر من ذات أو صفة أو نسبة منتف (**لم يقبلِ**) بكسر اللام (**في ذاته**) أي بالنظر لذاته (**الثبوت**) فهو (**ضد الأول**) أي الواجب . لما علمت أن الواجب هو الثابت الذي لا يقبل الانتفاء ، والمستحيل هو المنتفى الذي لا يقبل الثبوت . وخرج ما تعلق علم اللَّه تعالى بعدم وجوده[1] .

وهذا التعريف أخصر وأوضح وأصح من قولنا ما لا يتصور في العقل وجوده .

وهو قسمان أيضًا ضروري كخلو الجرم عن الحركة والسكون معًا .

ونظري كالشريك للَّه تعالى .

(**وكل أمر قابل**) في حد ذاته أخذًا مما تقدم (**للانتفاء وللثبوت**) فهو (**جائز بلا خفاء**) .

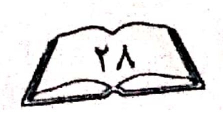
وهو أيضًا قسمان : ضروري كخصوص الحركة أو السكون للجرم .

ونظري كإثابة العاصي ، وتعذيب المطيع ، ومنه الشبع عند الأكل، والإحراق عند مماسة النار من كل حكم عادي فإنه جائز عقلي .

والحاصل كما قرره شيخنا أن مثل الإحراق عند مماسة النار أن نظرت إليه من حيث ذاته بقطع النظر عن التكرر ، فهو حكم عقلي ؛ لأنه من الجائز

---

(١) من الممكنات . ويسمى : المستحيل لغيره .



النظري ؛ لأن العقل إذا تأمل في وحدانية اللّه تعالى ، وأنه الفاعل المختار المنفرد بالإيجاد والإعدام ، علم أن الأفعال كلها للّه تعالى وحده ، ولا تأثير لما سواه خلافًا لمن غلط وجعلها من الأحكام الواجبة العقلية التي لا يمكن انفكاكها ، فأسند التأثير لنحو النار ، إما بالطبع أو بقوة أودعت فيها[1] ، وإن نظرت إليه من حيث تكرره على الحس سُمِّي حكمًا عاديًا .

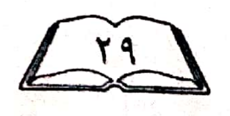
وقد علمت أن الحركة والسكون للجرم يصح أن يُمثَّل بهما لأقسام الحكم العقلي الثلاثة : فالواجب ثبوت أحدهما لا بعينه للجرم ، والمستحيل نفيهما معًا عنه ، والجائز ثبوت أحدهما له بالخصوص .

فإن قلت التعريف للماهية ، وكل للأفراد فكيف يصح أخذك لفظ كل في تعريف المستحيل والجائز .

قلت : لفظ كل هنا زائدة ارتكبها للضرورة ، أو أن ما ذكر ضابط لا تعريف ، إلا أنه يشير للتعريف فتسميته تعريفًا مجاز . وإنما عبرت بالثبوت ، والانتفاء ، دون الوجود والعدم ، لتشمل التعاريف الأحوال على القول بها . ككونه تعالى عالمًا فإنها لا تتصف بالوجود ولا بالعدم . وهذا من جملة الأحسنية التي أشرنا لها فتدبر .



(١) القائلون بتأثير الطبع هم الفلاسفة ، والقائلون بتأثير القوة المودعة هم المعتزلة .



وجود اللّه تعالى

● النَّظم :

١٧- ثُمَّ اعلمَنْ بأنَّ هذا العالَما ... أي ما سِوَى اللهِ العليِّ العالما

١٨- من غيرِ شكٍ حادثٌ مفتقرُ ... لأنـه قـام بـه الـتـغـيـيُّـرُ

١٩- حدُوثُه وجودُه بعد العَدَمْ ... وضدُه هو المُسَمَّى بالقِدَمْ

٢٠- فاعلمْ بأنَّ الوصفَ بالوجودِ ... من واجباتِ الواحدِ المعبودِ

٢١- إذ ظاهرٌ بأنَّ كلَّ أثرِ ... يَهدي إلى مؤثرِ فاعتبرِ

● الشــرح :

ولما فرغ من بيان أقسام الحكم العقلي ووجوب معرفة اللّه تعالى على كل مكلف أخذ في بيان الطريق الموصل إلى معرفته تعالى وهي حدوث العالم .

دليل حدوي العالم :

فقال (**ثم**) بعد أن عرفت أنه يجب على كل مكلف شرعًا أن يعرف ما يجب في حقه تعالى وما يستحيل وما يجوز (**اعلمن**) بنون التوكيد الخفيفة ، وضمن العلم معنى التصديق فعدَّاه بالباء في قوله (**بأن هذا العالما**) بجميع أجزائه سمى بذلك لأنه علامة أي دليل على وجود صانعه ، وفي التعبير باسم الإشارة إلى أن حقائق الأشياء ثابتة ، وأن العلم بها متحقق ، وهو كذلك عند جميع الملل إلا السوفسطائية ، فقد خالفوا في ذلك .

وهم فرق ثلاثة عنادية يقولون : لا ثبوت لحقيقة من الحقائق ، وإنما هي أوهام وخيالات كالذي يرى في المنام ، وعندية يقولون : الشخص عند اعتقاده حتى لو اعتقد أن النار جنة أو بالعكس لكان كذلك . واللاأدرية يقولون في كل

شيء : لا أدري حتى إنه يشك في نفسه وفي شكه ، وتوضيح الرد عليهم مذكور في المطولات .

ثم فسَّره بقوله : (**أي ما**) أي الشيء الذي هو (**سوى اللَّه العلى العالما**) نعت للَّه على القطع فهو منصوب على المدح ، وألفه للإطلاق من الجواهر والأعراض .

والجوهر : ما قام بنفسه . والعرض : ما قام بغيره من الجواهر كالألوان (**من غير شك**) متعلق بقوله : (**حادث**) أي موجود بعد عدم . وهو خبر أن أي إن حدوثه غير مشكوك فيه لمن تأمل ، أو أن المراد أنه يجب له الحدوث ، كما يجب لمحدثه القدم فلا يرد أن حدوثه لا يقول به الفلسفي .

وحقيقة الشك التردد في الطرفين على السواء ومراده به هنا مطلق التردد الشامل للظن وهو الطرف الراجح والوهم وهو المرجوح (**مفتقر**) إلى موجود يوجده من العدم وهو خبر ثان لازم للأول إذ الحادث لا يكون مفتقرًا ابتداء ودوامًا وفي الحقيقة هو يشير إلى نتيجة القياس الذي صرح بصغراه وطوى كبراه ونظمه هكذا :

العالم حادث ، وكل حادث مفتقر إلى محدث . ينتج العالم مفتقر إلى محدث .

أما دليل كون العالم حادثًا فـ (**لأنه قام به**) أي العالم يعني باعتبار بعضه وهو الأعراض (**التغير**) من عدم إلى وجود ، ومن وجود إلى عدم ، وذلك إما بالمشاهدة ، كالحركة بعد السكون ، والضوء بعد الظلمة ، والسواد بعد البياض ، والحرارة بعد البرودة ، إلى غير ذلك والعكس .

وإما بالدليل وذلك لأن ما شوهد سكونه مثلا على الدوام كالجبال ، أو



حركته على الدوام كالكواكب ، جاز أن يثبت له العكس ؛ إذ لا فرقَ بين جرم وجرم . وإذا جاز عدمها ، استحال قدمها ؛ لأن ما ثبت عدمه استحال قدمه ، فتكون حادثة ، فحينئذ جميع الأعراض حادثة .

ويلزم من حدوثها حدوث جميع الأجرام والجواهر لعدم انفكاكها عن الأعراض الحادثة ، وكل ما لا ينفك عن الحادث ، فهو حادث ، فظهر أن جميع العالم من أعراضه ، وأجرامه ، وجواهره حادث . أي موجود بعد أن لم يكن .

وأما دليل كون كل حادث ، فهو مفتقر إلى موجد يوجده ، فلآنه صنعة بديعة محكمة الإتقان ، وكل ما كان كذلك ، فله صانع ، إذ لو لم يكن له صانع للزم أن يكون حدث بنفسه ، فيلزم ترجيح أحد الأمرين المتساويين أعني الوجود والعدم على مساويه بلا سبب ، وهو محال لما يلزم عليه من اجتماع الضدين ، أعني المساواة والترجيح بلا مرجح . على أنه يلزم عليه ترجيح الأضعف على الأقوى ، لأن الأصل فيه العدم ، وهو أقوى من وجوده .

هذا هو البرهان المشهور بينهم في بيان حدوث العالم ، وافتقاره إلى صانع .

دليل آخر على حدوث العالم :

ولك أن تستدل على حدوثه بكونه أنواعًا مختلفة ، وأصنافًا متباينة ، كما يشير إليه آي القرآن العزيز : وذلك لأن بعضه علوى وبعضه سفلي ، وبعضه نوراني وبعضه ظلماني ، وبعضه حار وبعضه بارد ، وبعضه متحرك وبعضه ساكن ، وبعضه لطيف وبعضه كثيف ، وبعضه شوهد وجوده بعد عدمه ، وبعضه شوهد عدمه بعد وجوده ، إلى غير ذلك وكل نوع من هذه الأنواع



مشتمل على أصناف وأفراد وصفات لا قدرة لأحد على إحصائها ، فدل على أنه مفتقر إلى مخصص حكيم ، خص كل نوع ببعض الجائز عليه ، فيكون حادثًا بعد عدم . وأن خالقه مختار لا علة ولا طبيعة ، إذ معلول العلة ومطبوع الطبيعة لا يختلف على فرض تسليمه .

قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف : ١٨٥] إلى غير ذلك من الآيات .

(حدوثه وجوده بعد العدم) يعني أن حدوث العالم عبارة عن وجوده بعد عدمه خلافًا للفلاسفة فإنهم ذهبوا إلى قدمه . ومع ذلك أطلقوا القول بحدوث ما سوى الله تعالى لكن بمعني الاحتياج إلى الغير ، لا بمعني سبق العدم عليه . ومعتقد ذلك كافر بإجماع المسلمين .

(وضده) أي ضد الحدوث أي مقابلة يعني عدم أولية الوجود (هو المسمى بالقدم) ولا يكون إلا لله وحده كما سيأتي ولا واسطة بين الحدوث والقدم .

الصفة النفسية : الوجود :

إذا علمت أنه يجب على كل مكلف أن يعرف ما يجب وما يستحيل وما يجوز لله تعالى ، وعلمت الطريق الموصل إلى المعرفة (**فاعلم بأن الوصف**) أي اتصافه تعالى (بـ) صفة (**الوجود**) ويصح أن يراد أيضًا بالوصف الصفة[1]

---

(١) الصفة عند المتكلمين هي : ما يحكم به على الشيء سواء كان عين حقيقته ، أو قائمًا بها . أو خارجًا عنها . فدخل في هذا التعريف : الوجود ، وصفات المعاني ، والمعنوية ، ولو على القول بنفي الأحوال ، والسلوب .



والباء للتصوير والتفسير . أي بأن الصفة المفسرة بالوجود (**من واجبات الواحد المعبود**) أي بعض الصفات الواجبة له تعالى إذ الواجبات له تعالى كثيرة لا تنحصر فيما ذكر هنا ، لأن صفاته تعالى الكمالية لا تتناهي[١] ، إلا أنه لا يجب علينا تفصيل ما لم يقم عليه الدليل بالخصوص ، بل الواجب أن نعتقد أن كمالاته تعالى لا تتناهي على الإجمال .

وأما ما قام عليه الدليل بخصوصه فيجب اعتقاده تفصيلا . وهو ثلاث عشرة صفة[٢] ، وأضدادها ، بناء على مذهب الأشعري والمحققين[٣] من أن المعنوية ليست بصفات زائدة على المعاني ، وأن الحق أن لا حال .

وعليه فالوجود عين ذات الموجود . ليس بصفة زائدة عليها ، وفي عدّه من الصفات تسامح[٤] باعتبار أن الذات توصف به في اللفظ فيقال : ذات اللّٰه موجودة . فليتأمل[٥] .

ومعنى كون وجوده واجبًا أنه لا يقبل الانتفاء أزلًا وأبدًا . أي لا يمكن عدمه لما مرَّ في تعريف الواجب .

---

(١) أي صفاته الوجودية لا نهاية لها في الذهن ، ولا في نفس الأمر . واللّٰه يعلمها تفصيلاً وأنها لا نهاية لها .

(٢) وهي ثلاثة أقسام : نفسية ، وسلبية ، ومعان .

(٣) كالقاضي الباقلاني وإمام الحرمين .

(٤) أي مجاز مرسل علاقته المجاورة .

(٥) الصفات المعنوية أمور اعتبارية لا بد من اعتبارها في الذهن ، وإن لم يكن لها ثبوت خارج الذهن ونفس الأمر . فالأشعري وإن كان ينفي ثبوتها في نفس الأمر ، لا ينفي اعتبارها في الأذهان ، ومن يقول بالأحوال يقول بأنها واسطة بين الوجود والعدم ، فالصفة الوجودية عندهم : ما يصح أن ترى . والحال ثابتة في الخارج ولا يصح أن ترى .



برهان وجوده تعالى:

ثم برهن على وجوده تعالى بوجود صنعته جل وعلا فقال (**إذ ظاهر بأن كل أثر**) أي لظهور أن العالم أثر أي صنعة، لما مرَّ من أنه حادث، وكل أثر (**يهدى**) بفتح الياء (**إلى مؤثر**) أي يدل على صانعه؛ إذ لا يعقل صنعة بدون صانع؛ وإلا لزم الترجيح بلا مرجح، وهو محال[1] لما مر.

وإذا علمت أن كل صنعة تدل على وجود صانعها (**فاعتبر**) أي تأمل في ملكوت السموات والأرض، ودقائق الحكم، لتعلم بذلك أنه الواجب الوجود، الملك المعبود، القادر الودود، العلى العظيم، العليم الحكيم. فتهتدى إلى ما خُلقت لأجله، ثم تترقى إلى وفور حُبِّه وشكره، فيترتب على ذلك تفجير ينابيع الحكمة من قلبك، وتقعد في مقعد صدق عند ربك؛ ولنذكر لك شيئًا من ذلك لتقيس عليه غيره فنقول:

قال اللّه تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾، فأنت إذا نظرت إلى مبدأ خلقك، وجدت ربك سبحانه وتعالى قاد والديك بزمام الشهوة مقهورين في صورة مختارين مع تمام البسط والأنس، وفي هذا المقام أسرار عجيبة يدركها أرباب الكشف من أهل اللّه تعالى، حتى إذا حصل الوقاع، صانك اللّه في قرار مكين،

فخلق تلك النطفة علقة، ثم خلق العلقة مضغة، ثم مدَّها وصوَّرها في

---

(١) أي إذا فرضنا وجود صنعة بدون صانع، لزم الترجيح بلا مرجح؛ لأن الوجود مساوٍ للعدم، فتقديم الوجود على العدم ترجيح له، وهو لا يكون إلا بمرجح واجب الوجود؛ إذ لو كان جائزًا لكان حادثًا، ولو كان حادثًا؛ لافتقر إلى محدث، فيلزم الدور أو التسلسل، وهو محال.



أحسن صورة ، فجعل الرأس في أحسن خلقة ، وخلق العين والأذن والأنف ، وصور الوجه في أحسن صورة ، وأودعها من الجمال والكمال ما لا يخفى ، ثم أودع البصر في العين ، والسمع في الأذن ، والشم في الأنف ، وخلق الفم وزينه بالشفتين ، وخلق اللسان وخلق فيه الذوق ، وجعله جندًا من جنوده تعالى ، يترجم عما في الفؤاد من العلوم والمعارف ، وجعل الرقبة حاملة لعرش الرأس في حسن بديع ، وجعل فيها المنفذ الموصل للأكل والشرب إلى المعدة ، وأودع البطن من الأمعاء والمصارين والقلب والكبد وغيرها مما لا يعلم حقيقته إلا هو تعالى ، وخلق الأيدي ، وخلق فيها الأكف والأصابع[1] ، وجعلها مفاصل ، وأبدعها ، والأرجل كذلك ، وخلق العظام وكساها لحمًا ، ثم نفخ فيك الروح ، وهي سر عظيم عجيب من أسراره تعالى ، فتحركتَ في بطن أمك ، وما زال بك رءوفًا رحيمًا حافظًا لك في أضيق مكان يوصل لك غذاءك . وأنت لا تعلم شيئًا حتى إذا ما تم خلقك ، أنزلك من الرحم من أضيق محل ، فلطف بك وبأمك حتى إذا برزت ألهمك بمجرد النزول إلى ثدي أمك ، وأجرى فيه اللبن ، وأنزل في قلبها الرأفة والرحمة حتى إنها ترى بولك وغائطك من أحسن ما يكون . والمنة له تعالى في ذلك .

ولما آن أوان الأكل خلق لك الأسنان والأضراس ، ورتبها ترتيبًا عجيبًا مع ما فيها من كمال الزينة والجمال والكمال ، ثم لما قرب بلوغك ، وكانت هذه الأسنان ضعيفة أسقطها وأبدلها بأقوى منها ، ثم إذا أكلت فجر اللَّه في فمك عينا جارية وهي الريق لا ينقطع جريانها ، ما دمت تأكل لتبتل اللقمة بها ،

---

(١) وهذه الأصابع تشير إلى اسمه تعالى : (اللّٰه) فالخنصر الألف ، والبنصر والوسطى اللامان ، والسبَّابة مع الإبهام الهاء .

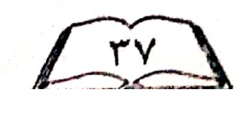


ويسهل بلعها لا تملها النفس ، ولا تجرى على الدوام ولا تنقطع فانظر إلى هذه الحكمة العجيبة التي أنت في غاية الافتقار إليها . وليس في قدرتك إجراؤها ، ولا منعها بالضرورة ، فإذا نزل الطعام والشراب في المعدة صرفه إلى ما يشاء ، فبعضه يتربى به اللحم ، وبعضه يتربى به العظم ، وبعضه يتربى به الشحم ، وبعضه يتربى به الدم مع كما اللذة حال الأكل وبعده ، ثم ما فضل عن ذلك وكان فيه الإيذاء للبدن على تقدير إبقائه في البطن أخرجه من مخرجيك ، وانظر لهذين المخرجين وبديع حكمتهما ، وإلى إقدارك على مسكهما عند تهيؤ الفضلة للخروج .

وبالجملة فلم يزل سبحانه بك رءوفًا رحيمًا ، ودودًا كريمًا ، في كل لحظة ، وأنت غافل عن نفسك وانظر إلى خروج النفس ودخلوه الذي به قوام الروح حالة اليقظة والنوم ، والصحة والمرض ، ومن أكبر عبرة العقل الذى به التمييز والتدبير ، وإدراك العلوم والمعارف ، وما يضر وما ينفع ، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل : ١٨] ، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

فيا ليت شعري أهذا ينبغي أن يُعْصَى فيما أمر ونهي !

ثم إذا نظرت إلى السماء وكواكبها ، والسحاب وتسخيرها ، والرياح وتصريفها ، وإلى الأرض وأنهارها ، وإلى الأشجار وثمارها ، لأفضى بك إلى العجب العجاب ، وعلمت أنه المحسن الوهاب ، اللهم وفقنا لما فيه رضاك ، واقطعنا عن كل شيء سواك ، واملأ قلوبنا من حبك وحب رسلك ، وأذقنا لذة الوصل من فيض فضلك ، وخذ بأيدينا إن زللنا ، وسامحنا إن أخطأنا ، إنك أنت الجواد الكريم ، الرءوف الرحيم .



الصفات السلبية

٢٢- وذي تُسمى صفةٌ نفسيَّةْ ثم تليها خمسةٌ سلبيهْ

٢٣- وهي القِدمُ بالذات فاعلم والبقا وقيامُه بنفسه نِلْتَ التُّقَى

٢٤- مخالفٌ للغير وحدانيَّةْ في الذَّات أو صفاتِهِ العليَّةْ

٢٥- والفعلُ في التأثير ليس إلا للواحد القهار جلّ وعلا

٢٦- ومَنْ يَقلْ بالطبعِ أو بالعلهْ فَذاك كفرٌ عند أهل الملَّةْ

٢٧- ومَنْ يَقلْ بالقوةِ المودعةِ فذاك بدعيٌّ فلا تَلتفت

٢٨- لو لم يكن متصفًا بها لزمْ حدوثُه وهو محالٌ فاستقمْ

٢٩- لأنه يُفضى إلى التسلسلِ والدورِ وهو المستحيلُ المنجلي

٣٠- فهو الجليلُ والجميلُ والوليّ والظاهرُ القدوسُ والربُّ العليّ

٣١- منَّزه عن الحلول والجههْ والاتصالِ الانفصال والسَّفهْ

● **الشــرح :**

(**وذي**) أي وهذه الصفة[١] أي صفة الوجود (**تسمى صفة نفسية**) نسبة إلى النفس أي الذات . والصفة النفسية هي التي لا تعقل الذات بدونها ، وهي صفة ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معني زائد عليها[٢] ، ويقال

---

(١) الصفات من حيث هي تنقسم إلى أربعة أقسام . لا زائد عليها : نفسية ، وسلبية ، ومعان ، ومعنوية . ووجه حصرها : أن الصفة إما أن يكون مدلولها عدمًا ، أو لا . فالأول : السلبية . والثاني إما موجودة ، أو لا . الأول : المعاني ، والثاني : إما أن يدل الوصف بها على نفس الذات ، دون معنى زائد عليها ، أو لا . الأول النفسية . والثاني : المعنوية . وقد سبق أن تكلم عن النفسية .

(٢) هذا تعريف الإمام سعد الدين التفتازاني .



أيضًا هي الحال الواجبة للذات ما دامت الذات غير معللة بعلة[1] . وذلك كالوجود ، والتحيز للجرم ، وكون الجوهر جوهرًا ، والشيء شيئًا .

فهذا تعريف للنفسية مطلقًا قديمة كانت أو حادثة .

وقوله في التعريف الثاني غير معللة بالنصب على أنه حال من الحال أو من الضمير في واجبة . واحترز به من الحال المعنوية ، ككون الذات عالمة ، أو قادرة ، أو مريدة ، فإنها معللة بقيام العلم ، والقدرة ، والإرادة بالذات فليتأمل[2] .

وجعلُ الوجود صفة نفسية إنما يصح عند من يثبت الأحوال . فيكون صفة زائدة على الذات غير موجودة في نفسها ، ولا معدومة . وأما عند من لم يثبت الأحوال فليس بصفة أصلًا ، وإنما هو عين ذات الموجود كما مر .

فإن قلت : إذا كنت قد بنيت هذه العقيدة على مذهب الأشعري القائل بنفي الأحوال ، فالوجه حذف الوجود ، ولا حاجة إلى ارتكاب التسامح .

قلت : لما كان معرفة الوجود يحتاج لها لينبني عليها غيرها من الصفات ، اعتبرت الوصف الظاهري في قولنا : ذات الله موجودة ، وارتكبت التسمح . على أن التحقيق أن الشيخ ولو نفى الأحوال لا ينفي الاعتبارات لظهور زيادتها

---

(١) هذا تعريف المتأخرين كالإمام السنوسي وغيره .

(٢) فالحال نوعان : حال معللة بعلة . وهي المتوقفة على أمر يدوم وجودها بوجوده . كالصفات المعنوية ؛ فإنها متوقفة على صفات المعاني . وحال غير معللة بعلة . كالوجود . والمراد بالتعليل : التلازم لا التأثير في المعلول . إذ لا يقول به أهل السنة . فالمقصود أنّ المعنوية ملازمة للمعاني ، فيلزم من قيام القدرة بالذات كون تلك الذات قادرة . وهكذا .



ذهنًا ، وإن لم يكن لها ثبوت خارجًا . بل قال العلامة التفتازاني[1] : لا خلاف أن الوجود زائد ذهنا بمعني أن للعقل أن يلاحظ الماهية بدون الوجود وبالعكس ، ونتعقل الماهية ونشك في وجودها[2] . اهـ .

صفة القِدم :

(**ثم تليها**) في الذكر (**خمسة سلبية**)[3] نسبة للسلب أي النفي إذ مدلول كل واحد منها سلب أمر لا يليق به سبحانه[4] (**وهي**) أي الصفات السلبية (**القِدم بالذات فاعلم**) أي القِدم الذاتي بمعني أنه تعالى قديم لذاته ، لا لعلة قديمة اقتضت وجوده تعالى عن ذلك . وليس المراد بالقدم الذاتي ما قابل القدم بالغير . كما يقول الفلسفى ، لقيام البرهان القاطع على أنه لا شيء قديم بالغير ، وأن كل ما سوى الله وصفاته حادث كما تقدم .

---

(١) هو سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني ، إمام في المنطق والكلام والبلاغة والبيان ، وُلد بتفتازان بخراسان . من كتبه : تهذيب المنطق والكلام ، ومقاصد الطالبين في علم أصول الدين ، وشرح العقائد النسفية ، والمطول في البلاغة ، ت ٧٩٣، الأعلام ٧/٢١٩.

(٢) هناك أربعة أنواع من الوجود : (أ) وجود في الذهن . (ب) وجود في اللسان أي الألفاظ . (جـ) وجود في الخط والكتابة . (د) وجود في الأعيان أي في الخارج ، وهو الوجود الحقيقي .

(٣) الصفات السلبية لا تنحصر في هذه الخمسة . فمنها : أنه لا ولد له ، ولا زوجة ، ولا في جهة . أو مكان ، أو زمان . وغير ذلك . وإنما اقتصروا على ذكر هذه الخمسة لأنها أمهاتها ، وغيرها يرجع إليها . وكذا الحال في بقية الصفات .

(٤) فليس المراد بكونها سلبية : أنها مسلوبة عن الله ، ومنفية عنه ، وإلا لزم أن يثبت له الحدوث ، وطرو العدم ، والمماثلة للحوادث مثلًا .



ومعنى القدم : سلب الأولية أي أنه تعالى لا أول لوجوده ، إذا لو لم يكن قديمًا ، لكان حادثًا تعالى عن ذلك . فيلزم افتقاره إلى محدث لما مر ، ثم محدثه كذلك . لانعقاد التماثل بينهما . وذلك مفض إلى الدور أو التسلسل ؛ لأن المماثل الثاني مثلًا إن كان المحدث له هو الأول فالدور وإن استمر العدد إلى غير نهاية فالتسلسل . وكلاهما محال .

بيان استحالة الدور :

أما استحالة الدور فظاهرة ؛ لأنه يلزم عليه تقدم كل منهما على صاحبه ، وتأخره عنه ، وهو جمع بين متنافيين ، بل ويلزم عليه أيضًا تقدم كل واحد منهما على نفسه ، وتأخره عنها ، وهو جلي البطلان .

بيان استحالة التسلسل :

وأما التسلسل فلأنه يؤدى إلى وجود آلهة لا نهاية لها ، كل منها متصف بالحدوث والعجز والافتقار . وهو باطل قطعًا ؛ لأنه مناف لمقام الألوهية من القدرة والغنى المطلق ، إذ العاجز الفقير لا يصح أن يكون خالقًا للعالم البديع الإتقان . وما أفضى إلى المحال وهو عدم القدم محال ؛ إذ استحالة اللوازم تقتضى استحالة الملزومات . فثبت القدم وهو المطلوب .

صفة البقاء :

(و) ثاني الصفات السابية (البقا) بالقصر للضرورة ، وهو سلب الآخرية أي نفيها أي أنه تعالى لا آخر له لوجوده تعالى ، لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه ، وإلا لجاز عليه العدم ، فيحتاج إلى مرجح فيكون حادثًا لا قديمًا ، كيف وقد ثبت قدمه .



صفة القيام بالنفس:

(و) ثالث الصفات السلبية (**قيامه**) تعالى (**بنفسه**)(١)، بمعني: سلب الافتقار إلى المحل(٢) أو المخصص(٣) أي الفاعل.

أما أنه تعالى لا يفتقر إلى محل يقوم به قيام الصفة بموصوفها، فلأنه لو افتقر إلى ذلك لكان صفة لا ذاتًا، إذ الذات لا تقوم بالذات. ولكن كونه تعالى صفة محال؛ إذ لو كان صفة لاستحال قيام الصفات الثبوتية كالعلم والقدرة والإرادة به تعالى؛ إذ الصفة لا تقبل صفة أخرى تقوم بها، وإلا لزم أن لا تخلو عنها، أو عن مثلها، أو عن ضدها. ويلزم مثل ذلك في الأخرى التي قامت بها، وهكذا إذ القبول أمر نفسي لا بد أن يتحد بين المتماثلين أو المتماثلات، وهو محال لما يلزم عليه من اتصاف الصفة بمثلها، أو بضدها، أو بخلافها، فيكون العلم عالمًا وجاهلًا وقادرًا، وكذا العكس، وهو باطل، ومن دخول ما لا نهاية له من الصفات الوجودية، على أن الصفة لو اتصفت بأخرى للزم الترجيح بلا مرجح؛

---

(١) الباء بمعنى (في) أي مستغنٍ في نفسه، ليس باعتبار شيء آخر. وورد إطلاق (النفس) على الله، كما في ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، وفي ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾. والنفس مأخوذة من النفاسة. لا من التنفس. لاستحالته عليه تعالى.

(٢) المقصود بالمحل هنا: الذات التي تقوم بها الصفة، وأما المحل بمعنى المكان، فيدخل في صفة: المخالفة للحوادث.

(٣) بالنسبة للاحتياج إلى المحل والمخصص، أو عدم الاحتياج نجد القسمة رباعية:

(أ) مستغنٍ عن المحل والمخصص معًا: وهو ذات الله تعالى.

(ب) مستغن عن المخصص فقط: وهو صفات الله تعالى.

(جـ) مفتقر إليهما معًا: وهو صفاتنا.

(هـ) مفتقر إلى المخصص فقط: وهو ذواتنا.



إذ جَعْلُ إحداهما موصوفة والأخرى صفة لها دون أن تكون صفة للذات التي قامت بها الموصوفة ودون أن تكون الموصوفة هي الصفة للأخرى تحكم . فليتأمل .

وهو تعالى قد ثبت أنه قامت به الصفات الثبوتية ، فلا يكون صفة لغيره ، فوجب أن يكون ذاتًا ، فلا يفتقر إلى محل وهو المطلوب .

وأما أنه لا يفتقر إلى مخصص ، أي موجد ومؤثر ؛ فلما يلزم من الحدوث كما مر في القدم .

(نلت) أي أدركت (التقي) أي التقوى وهي امتثال المأمورات فعلا والمنهيات تركًا ، قال الإمام الرازي[1] : التقي والتقوي واحد ، وهما لغة : بمعني الاتقاء ، وهو اتخاذ الوقاية أي ما يقي الشخص ، يعني يحفظه ويحول بينه وبين ما يخافه ، مثل الترس ونحوه في الأجسام ، فكأن المعني جعل بينه وبين المعاصي وقاية تحول بينه وبينها من قوة عزمه على تركها ، واستحضار علمه بقبحها ، نقله الشيخ عبد السلام اللقاني[2] ، في شرح الجزائرية . وهذه الجملة إنشائية في المعني . قصد بها الدعاء لمن حاول معرفة صفات الله تعالى

---

(١) هو فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي ، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، قرشي النسب ، من كتبه : مفاتيح الغيب «التفسير الكبير» بمعالم أصول الدين ، أساس التقديس ، لوامع البيان في شرح أسماء الله تعالى والصفات ، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء. المباحث المشرقية ، ت٦٠٦هـ ، الأعلام ٦/ ٣١٢.

(٢) هو عبد السلام بن إبراهيم بن حسن اللقاني شيخ المالكية في وقته ، له شرح على منظومة أبيه «جوهرة التوحيد» ، سماه «إتحاف المريد شرح جوهرة التوحيد» . ت١٠٧٨هـ - الأعلام ١/ ٣٥٥.



وتكملة البيت كأنه قال: اللهم اجعله محصلا للتقوى.

صفة المخالفة للحوادث:

ورابع الصفات السلبية (تَخَالفٌ للغير) أي مخالفته تعالى لغيره من الحوادث، ومعناها: عدم الموافقة لشيء من الحوادث، فليس تعالى بجوهر[1]، ولا جسم[2]، ولا عرض[3]، ولا متحرك، ولا ساكن، ولا يوصف تعالى بالكبر[4] ولا بالصغر، ولا بالفوقية[5] ولا بالتحتية، ولا بالحلول في الأمكنة، ولا بالاتحاد، ولا بالاتصال، ولا بالانفصال، ولا باليمين، ولا بالشمال، ولا بالخلف ولا بالأمام، ولا بغير ذلك من صفات الحوادث؛ إذ لو كان مماثلا لها، لوجب له تعالى ما وجب لها من الحدوث والافتقار، وذلك محال لما مر.

واعلم أن العالم وإن عظم في نفسه فهو بالنسبة لعظم قدرته تعالى ليس بشيء. فكيف يكون العلى الكبير القديم القدير حالًا أو متصلًا أو منفصلًا أو

---

(١) الجوهر: هو الجزء الذي لا يتجزأ، وهو متحيز، ومنه يتكون الجسم.

(٢) لأن الجسم مركب: إما من الجواهر الفودة. كما هو عند المتكلمين، أو من الهيولي والصورة كما هو عند الفلاسفة، وكل مركب محتاج إلى أجزائه، وكل محتاج ممكن، وكل ممكن حادث.

(٣) لأن العرض: ما قام بغيره، فيكون محتاجًا إلى المحل، فيكون ممكنًا، وكل ممكن حادث.

(٤) أي الكبر الحسي، أما الكبر المعنوي بمعنى العظيم، فهو من أوصافه، قال تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾.

(٥) أي الفوقية الحسية. أما المعنوية فهي من صفاته. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾. وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾، وقول فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾، فالمراد فوقية مكانة ومنزلة.

مستقرًا، أو على جهة[1] لهذا الشيء الحقير الحادث الفقير.

صفة الوحدانية:

وخامس الصفات السلبية: (**وحدانية**) وهي عبارة عن سلب الكثرة في الذات، والصفات، والأفعال. أي عدم الإثنينية[2] (**في الذات**) أي في ذاته تعالى اتصالا وانفصالا.

فوحدانية الذات تنفي عنه تعالى الكم المتصل والمنفصل، أي تنفي العدد في الذات متصلا كان أو منفصلا، فتنفي التركيب في ذاته تعالى، ووجود ذات أخرى تماثل الذات العلية، أي أنه تعالى ليست ذاته مركبة من أجزاء، متصل بعضها ببعض، وإلا لكان مماثلا للحوادث من حيث التركيب، فيحتاج إلى من يركبه، وهو محال، وليس له نظير في ذاته.

(أو) أي وعدم الاثنينية في (**صفاته العلية**) اتصالًا أو انفصالًا أيضًا. فوحدانية الصفات تنفي عنه تعالى الكم المتصل والمنفصل فيها. أي تنفي العدد في حقيقة كل واحدة منها. متصلا كان أو منفصلا، أي أنه تعالى له حياة واحدة، وعلم واحد، وهكذا. لا أكثر، وليس ثَمَّ من يتصف بصفات الألوهية سواه تعالى.

(و) وحدانية أي عدم الاثنينية في (**الفعل**) يعنى أنه تعالى متصف بوحدانية الأفعال. فليس ثَمَّ من له فعل من الأفعال سواه تعالى؛ إذ كل ما سواه

---

(١) الجهة هي: المكان المضاف إلى مكان آخر. وهي خاصة بالأشياء المادية، وما ليس جسمًا، لا يكون في جهة.

(٢) المراد عدم التعدد مطلقًا. واقتصر على الإثنينية؛ لأنها مبدأ التعدد.



عاجز لا تأثير له في شيء من الأشياء[1].

والمشهور في إثبات الوحدانية برهان التمانع[2]، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢][3].

وحاصله: أنه لو أمكن التعدد لأمكن التمانع بينهما. بأن يريد أحدهما حركة زيد مثلا، والآخر سكونه. إذ كل منهما أمر ممكن في نفسه. وكذا تعلق الإرادة بكل منهما. وحينئذ إما أن يحصل الأمران، فيلزم اجتماع الضدين، أو لا، فيلزم عجزهما أو عجز أحدهما، وهو أمارة الحدوث والإمكان لما فيه من شائبة الاحتياج، فالتعدد مستلزم لإمكان التمانع المستلزم للمحال، فيكون التعدد محالًا.

وبما ذكر اندفع ما يقال: إنه يجوز أن يتفقا من غير تمانع.

وحاصل الدفع أن الإمكان محال وإن لم يقع تمانع بالفعل[4].

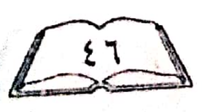
---

(١) هذا على مذهب الأشعري من أن صفات الأفعال حادثة. وأما على مذهب الماتريدي من أن صفات الأفعال قديمة، ترجع لصفة واحدة، وهي التكوين. فالكمان منفيان أيضًا.

(٢) برهان التمانع خاص ببطلان وجود آلهة مختلفة. أما بطلان وجود آلهة متفقة، فيسمَّى: برهان التوارد، وسيذكره قريبًا.

(٣) كلمة (إلا) صفة لآلهة. بمعنى (غير)، فهي اسم لكن لم يظهر إعرابها إلا فيما بعدها لكونها على صورة الحرف. ولا يجوز أن تكون أداة استثناء. لا من جهة المعنى، ولا من جهة اللفظ. أما الأول: فلأنه يلزم منه نفي التوحيد؛ إذ التقدير: لو كان فيهما آلهة، ليس فيهم الله لفسدتا، فيقتضي بمفهومه: أنه لو كان فيهما آلة فيهم الله لم تفسدا. وهو باطل. وأما الثاني: فلأن المستثنى منه، يشترط أن يكون عامًا، وآلهة جمع منكر في الإثبات. فلا عموم له، فلا يصح الاستثناء منه.

(٤) فالآية حجة قطعية. لا دليل إقناعي، كما قيل. وإيضاحها: أنه لو تعدد الإله، لم تتكون السماوات والأرض؛ لأن تكونهما إما بمجموع القدرتين، أو بإحداهما. والكل باطل. =



أفعال العباد :

وإذا علمت أنه تعالى يجب له الوحدانية (**فالتأثير**) الاختراع والإيجاد للأشياء من العدم (**ليس**) أي لا يصح لأحد (**إلا للواحد القهار**) وحده (**جل وعلا**) فلا تأثير لقدرتنا في شيء من أفعالنا الاختيارية كالحركات والسكنات، والقيام والقعود، ونحو ذلك. بل جميع ذلك مخلوق له سبحانه وتعالى بلا واسطة. كما أن قدرتنا مخلوقة له تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] أي وخلق عملكم.

فإن قلت: إذا لم يكن لنا قدرة على إيجاد شيء فكيف ينسب لنا العمل، وكيف يصح تكليفنا به، ونخاطب به؟ قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وذلك كثير في الكتاب والسنة.

قلنا: النسبة إلينا ومخاطبتنا بتحصيله من حيث إنه كسب أو اكتساب[1]. لا من حيث إنه إيجاد واختراع.

وتوضيح ذلك أن قدرته تعالى أبرزت الأشياء على طبق إرادته من العدم إلى الوجود، وهذا الإبراز هو المُسَمَّى بالإيجاد والاختراع، وهو المراد بتعلق القدرة القديمة، وأما قدرتنا فقد تعلقت ببعض الأفعال، وهي الأفعال الاختيارية أي التي لنا فيها الاختيار والميل والقصد من غير إيجاد واختراع، وهذا التعلق على طبق إرادتنا هو المُسَمَّى بالكسب والاكتساب.

= أما الأول: فلأن شأن الإله كمال القدرة، فإذا توجَّهتْ لشيء أبرزته، وأما الآخر: فلما مرَّ. فيلزم عجزه. فلا يوجد شيء من العالم وعدم وجود العالم محال؛ لأنه خلاف المشاهد. فيكون معنى (لفسدتا): لم توجدا.

(١) كسب: إن كان طاعة، واكتساب: إن كان معصية.



فتعلق قدرة اللّٰه تعالى على وفق إراداته تعلق إيجاد ، وتعلق قدرتنا على طبق إرادتنا تعلق كسب ، أي تعلق هو كسب لا إيجاد .

فأفعالنا الاختيارية قد تعلقت بها القدرتان : القدرة القديمة ، والقدرة الحادثة ، وليس للقدرة الحادثة تأثير وإنما لها مجرد مقارنة . فاللّٰه تعالى يخلق الفعل عندها لا بها ، كالإحراق عند مماسة النار للحطب ، فمن حيث إنه خلق لنا ميلا إلى الشيء وقصدًا إليه ، وخلق لنا قدرة مصاحبة لخلقه تعالى ذلك الذي قصدناه ، نسب إلينا ذلك الفعل ، وطالبنا به ، إذ هو ظاهر الحال . يتراءى أنه فعل للعبد ، وإذا نظر إلى دليل التوحيد قطع الناظر بأن الفعل ليس مخلوقا إلا للّٰه تعالى وإلا لزم الشريك له تعالى عن ذلك .

فعلم أن هذا التعلق عبارة عن مقارنة القدرة الحادثة من غير تأثير ، وبحسبه تضاف الأفعال للعبد ، كقوله تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، ويترتب الثواب والعقاب بمحض الفضل أو العدل ، ويسمى العبد حينئذ مختار ، وعند خلق اللّٰه تعالى الفعل في العبد بلا قدرة له مقارنة يسمى مجبورًا ومضطرا ، وقد تفضل اللّٰه سبحانه علينا في هذه الحالة بإسقاط التكليف ولو شاء لكلفنا عندها أيضًا .

والفرق بين الحركة الاختيارية والاضطرارية مما هو بديهي عند كل عاقل .

فبطل قولُ الجبرية بأنه لا قدرة للعبد تقارن فعلًا له أصلًا بل هو مجبور ظاهرًا وباطنًا كالخيط المعلق في الهواء . تميله الرياح بلا اختيار له في شيء أصلًا ، وقولُ القدرية بتأثير القدرة الحادثة في الأفعال على طبق إرادة العبد .

والجبرية كفار قطعًا لأن مذهبهم ينفي التكليف الذي جاء به الرسل عليهم السلام ، وفي كفر القدرية خلاف الأصح عدم كفرهم ، لأنهم وإن لزمهم



إثبات الشريك للّه تعالى إلا أنهم لما أثبتوا للّه تعالى خلق العبد وقدرته وإرادته ، صار فعل العبد في الحقيقة مخلوقًا له تعالى .

وعلم أيضًا أنه لا تأثير للأمور العادية في الأمور التي اقترنت بها . فلا تأثير للنار في الإحراق ، ولا للطعام في الشبع ، ولا للماء في الري ، ولا في إنبات الزرع ، ولا للكواكب في إنضاج الفواكه وغيرها ، ولا للأفلاك في شيء من الأشياء ، ولا للسكين في القطع ، ولا لشيء في دفع حر أو برد أو جلبهما ، أو غير ذلك ، لا بالطبع ، ولا بالعلة ، ولا بقوة أودعها اللّه فيها ، بل التأثير في ذلك كله للّه تعالى وحده بمحض اختياره عند وجود هذه الأشياء .

القول بالطبع أو بالعلة :

(**ومن يقل**) من أهل الضلال كالفلاسفة (**بالطبع**) أي بتأثير الطبع أي الطبيعة والحقيقة بأن يقول : إن الأشياء المذكورة تؤثر بطبعها (**أو**) يقل (**بالعلة**) أي بتأثيرها بأن يقول إن الأشياء علة أي سبب في وجود شيء من غير أن يكون للّه تعالى فيه اختيار .

والفرق بين تأثير الطبع ، وتأثير العلة وإن اشتركا في عدم الاختيار : أن التأثير بالطبع يتوقف على وجود الشرط ، وانتفاء المانع كالإحراق ، بالنسبة للنار ، فإنه يتوقف على شرط مماسة النار للشيء المحرق ، وانتفاء مانع البلل فيه مثلًا .

وأما التأثير بالعلة ، فلا يتوقف على ذلك . بل كلما وُجدت العلة ، وُجد المعلول . كحركة الخاتم بالنسبة لحركة الإصبع .

ولذا كان يلزم اقتران العلة بمعلولها . ولا يلزم اقتران الطبيعة بمطبوعها ، أي لتخلف الشرط أو انتفاء المانع (**فذاك**) القائل (**كفر**) أي كافر أو ذو كفر . ويصح رجوع اسم الإشارة للقول المفهوم من يقل . فالحمل ظاهر على معنى :

فقوله كفر فيكون القائل به كافرًا ، لأنه أثبت الشريك والعجز للّه تُعالى عن ذلك (**عند**) جميع (**أهل الملة**) أي ملة الإسلام .

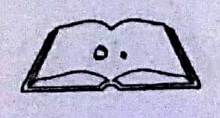
والملة والدين والشريعة عبارة عن الأحكام الشرعيَّة فهي متحدة بالذات لكنها مختلفة بالاعتبار ؛ لأن الأحكام الشرعية من حيث إنها تُملى لُتنْقَل : ملة ، ومن حيث إنها يتدين بها أي يُتعبد بها : دين ، ومن حيث إنها شرعت أي بينها الشارع : شريعة أي مشروعة .

واعلم أن الفلاسفة كما قالوا بتأثير الطبائع والعلل قالوا : إن الواجب الوجود أثَّر في العالم بالعلة ، فهو تعالى علة فيه ، فلذا قالوا إن العالم قديم ، أنه يلزم من قدم العلة قدم المعلول ، فقد أثبتوا له تعالى عدم الاختيار ، وعدم القدرة ، ولا شك في كفرهم عند المسلمين .

والحاصل أن الفاعل بحسب الفرض والتقدير ثلاثة ، فاعل بالطبع ، وفاعل بالعلة ، وفاعل بالاختيار ، وهو الذي إن شاء فعل وإن شاء ترك ، وكلها قال بها الفلاسفة والثالث كالإنسان عندهم . وأما المسلمون فلم يقولوا إلا بالأخير ثم هو مخصوص بالواحد القهار سبحانه وتعالى .

القول بتأثير القوة المودعة :

(**ومن يقل**) من أهل الزيغ إن هذه الأمور العادية تؤثر (**بالقوة المودعة**) أي بواسطة قوة أودعها اللّه تعالى فيها ، كما أن العبد يؤثر بقدرته الحادثة التي خلقها اللّه تعالى فيه ، فالنار تؤثر بقوة خلقها اللّه تعالى فيها ، وكذا الباقي (**فذاك**) القائل (**بدعى**) نسبة للبدعة خلاف السنة ، لأنه لم يتمسك بسنة السلف الصالح التي أخذوها عن النبي ﷺ ، وليس بكافر على الصحيح لما تقدم ، وإذا كان بدعيًا (**فلا تلتفت**) أي لقوله بل يجب الإعراض عنه ،



والتمسك بقول أهل السنة ، من أنه لا تأثير لما سوى اللَّه تعالى أصلًا ، لا بطبع ، ولا علة ، ولا بواسطة قوة أودعت فيها ، وإنما التأثير للَّه وحده بمحض اختياره .

فإن قلت : إن بعض أهل السنة قال بالتأثير بواسطة القوة ، ورجحه الإمام الغزالي ، والإمام السبكي . كما نقله السيوطي فكيف يكون القائل به بدعيًا وفي كفره قولان ؟ .

قلت : معنى القول بالتأثير بالقوة عند بعض أئمتنا أن اللَّه تعالى هو المؤثر والفاعل بسبب تلك القوة التي خلقها اللَّه تعالى في تلك الأشياء ، فالتأثير عنده للَّه وحده ، وإن كان بواسطة تلك القوة . وأما القدرية فينسبون التأثير لتلك الأشياء بواسطة القوة ففرق بين الاعتقادين ومع ذلك فالراجح الأول ، وهو أن التأثير له وحده عندها لا بها وإن جرت العادة بأنه إنما يحصل التأثير عندها .

برهان الصفات السلبية :

ثم أشار غفر اللَّه له إلى برهان الصفات السلبية إجمالًا بقوله (**لو لم يكن**) أي إنما وجب اتصافه بالصفات السلبية لأنه لو لم يكن (**متصفًا به**) بأن كان غير قديم ، أو باق ، أو كان مماثلًا للحوادث ، أو غير قائم بنفسه ، أو غير واحد فيما مر (**لزم حدوثه**) تعالى عن ذلك أما القدم فظاهر .

وأما البقاء ؛ فلأنه لو لم يكن متصفًا به لم يكن قديمًا ، لأن من ثبت قدمه استحال عدمه وإلا لكان جائز العدم ، فيحتاج إلى مرجح ، وكل محتاج إلى مرجح حادث .

وأما القيام بالنفس فلأنه لو قام بغيره لكان عرضًا وقد تقدم بيان حدوث الأعراض ، أو كان صفة قديمة قائمة بموصوفها ، فيلزم أن لا يتصف بصفات المعاني لما مر . وهو باطل .



وأما المخالفة للحوادث ، فلأنه لو ماثل شيئًا منها ، لكان حادث مثلها .

وأما الوحدانية فلأنه لو كان له نظير في ذاته أو صفاته للزم العجز لما مر ، وكل عاجز حادث (وهو) أي الحدوث عليه تعالى (**محال**) لا يقبل الثبوت عقلًا . وهذا إشارة إلى الاستثنائية فهو في قوة قولنا : لكن حدوثه محال (**فاستقم**) تكملة ولا تخلو عن فائدة .

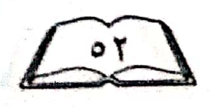
وإنما كان حدوثه تعالى محالًا (**لأنه يفضى**) أي يؤدى (**إلى التسلسل**) إن استمر العدد إلى مالا نهاية له . وهو محال لما مر (و) أي أو يُفضى إلى (**الدور**) إن لم يستمر ، بأن رجع إلى الأول ، فيكون الأول متأخرًا والمتأخر أولًا (و) الدور (**هو المستحيل المنجلي**) أي الظاهر لظهور دليله . وقد مر . وإذا كان كل من التسلسل والدور محالًا فما أفضى إليهما وهو الحدوث يكون محالًا ، وإذا كان الحدوث عليه تعالى محالًا ، ثبت اتصافه تعالى بالصفات السلبية على ما تقدم بيانه .

وقد تقدم برهان كل صفة على حدتها تفصيلًا أيضًا عند ذكرها . والحمد للَّه الذي هدانا لهذا . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللَّه .

تعريفان على ما تقدم :

ثم فرع على ما ذكره من صفات السلوب بعض أسماء وتنزيهات ، فقال (**فهو**) سبحانه وتعالى (**الجليل**) أي العظيم الشأن الذي يخضع لجلاله كل عظيم ، ويستحقر بالنسبة لعظمته كل فخيم ، والأظهر أن الجلال يرجع للصفات السلبية والكمالية معًا لا لأحداهما فقط كما قيل بكل .

(**والجميل**) أي المتصف بصفات الجمال والكمال من علم وحياة وقدرة وإرادة وغيرها . وإنما تتم بالتنزيه عن كل عيب ونقص مما لا يليق بالجناب



الأعز الأحمى[1] ويندرج في ذلك اللطف، والحلم، والكرم، والعفو، وغير ذلك مما لا يحصى؛ إذ هي ترجع للإرادة أو مع القدرة[2].

ولجلاله ترى العارفين بالله تعالى من هيبته خاشعين، ولجماله تراهم من حبه مولهين.

(**والولي**) أي مالك الخلائق ومتولى أمورهم (**والطاهر**) أي المنزه عن كل ما لا يليق به (**القدوس**) من القدس وهو الطهر أي العظيم التنزيه عن كل نقص (**والرب**) أي المالك ومربي الخلائق (**العلى**) أي المرتفع القدر المبرأ عن كل عيب.

(**منزه**) أي هو منزه ومطهر (**عن الحلول**) في الأمكنة أو حلول السريان كسريان الماء في العود الأخضر (**و**) عن (**الجهة**) لشيء فلا يقال إنه فوق الجرم، ولا تحته، ولا يمينه ولا شماله، ولا خلفه ولا أمامه (**و**) منزه عن (**الاتصال**) في الذات أو بالغير وعن (**الانفصال**) فلا يقال إنه متصل بالعالم، ولا منفصل عنه؛ لأن هذه الأمور من صفات الحوادث، والله ليس بحادث.

وقد تقدم أن العالم وإن عظم في نفسه، فهو في جانب باهر قدرته، كأنه ليس بشيء فكيف يكون العلى الكبير الغني القدير حالًا، أو متصلًا، أو منفصلًا في شيء حقير فقير هو في نفسه عدم!

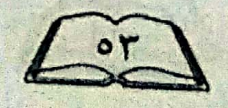
قال العارف ابن عطاء الله[3] في الحكم: أيا عجبا كيف يظهر الوجود في

---

(١) الأحمى: أي المحمي من كل نقص، المنزه عما لا يليق به.

(٢) أي تكون صفة ذاتية، أو تعلق القدرة، فتكون صفة فعلية. فيقال في اللطف هو: إرادة الإحسان، أو نفس الإحسان، ويقال في الحِلم: هو إرادة ترك الانتقام، أو: ترك الانتقام. وهكذا.

(٣) هو أبو الفضل تاج الدين أحمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله السكندري الشاذلي. كان =



العدم، أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم . اهـ .

سبحانه قد دلت على وجوب وجوده آياته، وشهدت بوحدانيته مصنوعاته، واشتبه الأمر على أقوام وقوفًا مع الأمور العادية، وتمسكا بظواهر نصوص شرعية، فقال قوم بالجهة، وقال آخرون بالجسمية، ويلزم منهما الحلول والاتصال أو الانفصال تعالى اللّٰه عن ذلك علوًا كبيرًا

وأجاب أئمتنا سلفُهم : بأن اللّٰه تعالى منزه عن صفات الحوادث مع تفويض معانى هذه النصوص إليه تعالى إيثارًا للطريق الأسلم، وما يعلم تأويله إلا اللّٰه) .

وخلفُهم بتعيين محامل صحيحة، إبطالًا لمذهب الضالين وإرشادًا للقاصرين، فحملوا اليد على القدرة، والوجه على الذات، والاستواء على الاستيلاء . وهكذا نظرًا إلى الطريق الأحكم وذهابًا إلى أن الوقف في الآية ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران : ٧] .

ومن ثم قيل : إن طريق السلف أسلم، وطريق الخلف أعلم .

والحاصل : أنه لا بد من تأويل أي حمل اللفظ على غير ظاهره . إلا أن الخلف عينوا المحامل، فتأويلهم تفصيلي، وتأويل السلف إجمالي، فقول العلامة اللقاني : وكلُّ نصٍّ أوهم التشبيها أوِّله . أي تفصيلًا . وقوله : أو فوِّض أي بأن تؤوله إجمالًا على معني أنك لا تعين له محملًا، بدليل قوله بعده : وَرُمْ تنزيها وأو في كلامه رحمه اللّٰه للتخيير .

(و) منزه أيضًا عن (السفه) وهو وضع الشيء في غير محله، إذ هو المدبر

= من أشد خصوم ابن تيمية . من كتبه : الحكم العطائية، وتاج العروس، ولطائف المنن . ت بالقاهرة ٧٠٩هـ . الأعلام ١/ ٢٢١ .



الحكيم الخبير العليم ، ولذا قال بعض أهل العرفان لما شاهد من عجيب الإتقان : ليس في الإمكان أبدع مما كنا[1] .



(١) أي ليس في إمكان الخلائق تغيير ما أراده اللّٰه وأبدعه ، أو ليس في الإمكان أبدع مما كان لتعلق علمه تعالى وإرادته أزلًا بوجوده على هذا النحو البديع ، فصار الممكن واجبًا على هذا النحو . وهذا الكلام لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي ، رحمه اللّٰه تعالى .



صفات المعاني

● النَّظم :

٣٢- ثم المعاني سبعةٌ للرائي أي عِلْمُه المحيطُ بالأشياءِ

٣٣- حياتُه وقدرةٌ إرادة وكلُّ شيءٍ كائنٌ أراده

٣٤- وإن يكن بضدِه قد أمرا فالقصدُ غيرُ الأمرِ فاطرحِ المِرَا

٣٥- فقد علمتَ أربعًا أقسامًا في الكائناتِ فاحفظ المقاما

٣٦- كلامُهُ والسَّمْعُ والإبصارُ فهو الإلهُ الواحدُ المختارُ

● الشــرح :

ولما فرغ من الكلام على الصفات السلبية ، شرع في بيان صفات المعاني[1] . وقَدَّمها لأنها من باب التخلية ، والمعاني من باب التحلية ، وشأن التخلية أن تُقدم على التحلية ، فقال :

(ثم المعاني) أي ثم بعد أن عرفت ما تقدم من النفسية والسلبية ، فيجب عليك معرفة الصفات المسماة بالمعاني ؛ لأن كل واحدة منها معني قائم بذاته تعالى .

---

(١) المعاني جمع معنى . وهو لغة : ما قابل الذات فيشمل الصفات النفسية ، والسلبية ، والمعاني ، والمعنوية . واصطلاحًا : كل صفة قائمة بموصوف زائدة على الذات ، موجبة له حكمًا . فخرج بقولنا : قائمة بموصوف . السلبية . وبقولنا : زائدة على الذات النفسية ؛ لأنها عين الذات ، وبقولنا : موجبة له حكمًا : المعنوية ، لأنها نفسها حكم ، وعلى القول بأنها أمور اعتبارية ، فقد خرجت بقولنا : قائمة بموصوف . وهذا التعريف يشمل صفات المعاني للقديم وللحادث ، والفرق بينهما أن صفات القديم قديمة ، وصفات الحادث حادثة ، ولا نسمي صفات القديم أعراضًا . بينما يسمى صفات المعاني للحادث أعراضًا .



ومرادهم بصفات المعاني : الصفات الوجودية أي التي لها وجود في نفسها . قديمة كانت أو حادثة[1] . كعلمه وقدرته تعالى ، وكعلمنا وقدرتنا ، والبياض والسواد .

والحاصل أن الصفات إن كانت وجودية سُمِّيت : صفات معان ، وإن لم تكن وجودية : فإن كان مدلولها عدم أمر لا يليق سُمِّيت : سلبية ، وإن لم يكن مدلولها عدما فإن كانت واجبة للذات ما دامت الذات غير معللة بعلة . سُمِّيت : صفة نفسية ، وحالًا نفسية كالوجود ، وكالتحيز للجرم ، وقبوله للأعراض ، وإن كانت معللة بعلة ، بأن كانت واجبة للذات ما دامت علتها ، سميت : معنوية ، كالعالمية ، والقادرية ، أي كون الذات المتصفة بالعلم عالمة ، وكون المتصفة بالقدرة قادرة ، نسبة إلى المعانى .

وهي (سبعة للرائي) أي الناظر المتأمل . ثم فسَّرها بقوله :

صفة العلم :

(**أي علمه**) وما عطف عليه (**المحيط بالأشياء**) كلها واجبها ، وجائزها ، ومستحيلها . فليس مراده بالأشياء الموجودات فقط كما هو المتعارف عندهم[2] .

وهو صفة أزلية تنكشف بها الموجودات والمعدومات على ما هي عليه انكشافا لا يحتمل النقيض بوجه[3] .

---

(١) وتسمَّى أيضًا : الصفات الذاتية ؛ لأنها لا تنفك عن الذات .

(٢) بل المراد المعنى اللغوي للأشياء . وهو الأمور مطلقًا . موجودة كانت أو معدومة .

(٣) تعريفات صفاته تعالى ليست حدودًا حقيقية ، وإنما هي تعريفات بالرسم ؛ لأنه لا يعلم حقيقة ذاته وصفاته إلا هو .

صفة الحياة :

و (حياته) تعالى وهي صفة أزلية توجب صحة العلم والإرادة

صفة القدرة :

(وقدرة) وهي صفة أزلية يتأتى بها إيجاد الممكن وإعدامه[١] .

صفة الإرادة :

و(إرادة) وهي صفة أزلية تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه من وجود أو عدم ، ومقدار ، وزمان ، ومكان ، وجهة[٢] .

إذ لو لم يتصف بواحدة من هذه الصفات الأربعة[٣] ، لاتصف بأضدادها من جهل ، وموت ، وعجز ، وعدم قصد إلى شيء ، والمتصف بأضدادها لا يمكنه أن يخلق شيئا من العالم البديع الإتقان ، كيف والعالم موجود على أتم النظام وسيأتي لهذا مزيد بيان .

مغايرة الإرادة للأمر :

ثم ذكر مسألة تتعلق بالإرادة . وقع فيها النزاع بيننا وبين المعتزلة بقوله : (وكل شيء كائن) أي موجود من الجواهر والأعراض وهذا مبتدأ وجملة قوله

---

(١) هذا هو المشهور . وقيل : لا تتعلق بالإعدام . بل إذا أراد الله إعدام شيء أمسك عنه المدد . وهو مذهب الأشعري .

(٢) وكذلك تخصص بعض الصفات ، وهذه الستة هي الأمور المتقابلة ، وهي المجموعة في قبول بعضهم :

الممكنات المتقابلات ... وجودنا والعدم والصفات
أزمنة أمكنة جهات ... كذا المقادير روى الثقات .

(٣) هذا هو الدليل العقلي على الصفات الأربعة لتوقف المعجزة عليها . أما الثلاثة الباقية ، فدليلها سمعي .



(**أراده**) أي أراد وجوده : خبرُه . فلا يقع في ملكه تعالى إلا ما يريد ، وهذا إذا كان الكائن قد أمر اللَّه به ، كإيمان أبي بكر رضى اللَّه عنه ، وكذا إيمان بقية المؤمنين بل (**وإن يكن بضده**) أي بضد ذلك الكائن (**قد أمرا**) بألف الإطلاق والضمير يعود عليه تعالى أي وإن كان ذلك الكائن قد أمر اللَّه تعالى بضده – ككفر أبي جهل – لعنه اللَّه – وكذا كفر بقية الكافرين ، فإنه كائن ، وقد أمر اللَّه بضده وهو الإيمان ، ونهى عنه ، ومع ذلك هو مراد له تعالى بدليل وقوعه .

والحاصل أن كل كائن أي واقع فهو مراد له تعالى سواء أمر به أولا ، ومفهومه أن لم يكن فهو غير مراد الوقوع سواء أمر به كالإيمان من أبي جهل ، أولم يأمر به كالكفر من المؤمنين ، فالأقسام أربعة كما يأتي

وإذا عرفت ذلك (**فالقصد**) يعني الإرادة (**غير الأمر**) بالشيء بل ولا يستلزمه ، كما أنه لا يستلزمها ، لما علمت أنهما قد يجتمعان في شيء ، كإيمان أبي بكر ، وقد ينفردان . وذلك لأن الإرادة صفة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، والأمر يرجع للكلام النفسي كالنهي .

(**فاطرح**) أي اترك (**المرا**) وهو الجدال ، والنزاع الباطل من المعتزلة الذاهبين إلى أنه تعالى يقع في ملكه ما لا يريد بناء على اتحاد الإرادة والأمر ، وهو تعالى لا يأمر بالفحشاء فلا يريد القبائح ، كالكفر والمعاصي ، وإلا لزم أنه يأمر بها ، وهو باطل وحينئذ فهو تعالى لم يرد من الفاسق إلا إيمانه وطاعته ، لا كفره ومعصيته ، قالوا : ولأن إرادة القبيح قبيحة ، كخلقه وإيجاده ، فعندهم أكثر ما يقع من أفعال العباد ليس بإرادة اللَّه ، ولا بخلقه وإيجاده ، وإنما هو بمراد العبد وإيجاده ، وهو شنيع .

هذا ونحن نمنع اتحاد الإرادة والأمر بدليل : « ما شاء اللَّه كان ، وما لم يشأ



لم يكن »[١] ، والقبيح إنما هو كسب القبائح والاتصاف بها ، لا خلقها وإرادتها .

وبالجملة ما ذهبوا إليه يشهد بفساده العقل والنقل (**فقد علمت**) من قولنا : وكل شيء كائن أراده الخ منطوقًا ومفهومًا[٢] (**أربعا أقسامًا**) عطف بيان لأربع (**في الكائنات**) جمع كائنة أي ذات كائنة .

القسم الأول : مأمور به ؛ ومراد كإيمان أبي بكر .

الثاني : عكسه كالكفر منه .

الثالث : مأمور غير مراد كالإيمان من أبي جهل .

الرابع : عكسه ككفره .

(**فاحفظ**) هذا (**المقاما**) فإنه قد زلَّت فيه أقدام المعتزلة ومعرفته واعتقاده على الوجه المتقدم هو مذهب أهل السنة من سلف الأمة وخلفهم .

صفة الكلام :

وخامس صفات المعاني (**كلامه**) تعالى وهو صفة أزلية نفسية ليست بحرف ولا صوت تدل على جميع المعلومات[٣] .

صفتا السمع والبصر :

(**و**) سادسها (**السمع و**) سابعها (**الإبصار**) يعني البصر فقد أطلق اسم

---

(١) أخرجه أبو داود في ك الأدب ٢٢/٣١٦.

(٢) المنطوق : أنَّ ما شاءه وقع . أمر به أو لم يأمر . والمفهوم : أنَّ ما لم يشأه لم يقع . أمر به أو لم يأمر .

(٣) ويطلق بالاشتراك على الكلام النفسي . وهو ما ذكره ، وعلى الكلام اللفظي الذي يكون بالحروف والأصوات . وينقسم إلى أمر ونهي . ووعد ووعيد ، وخبر واستخبار . وأما الصفة القديمة ، فلا تنقسم .



المسبب وأراد السبب مجازًا . يدل على مراده أن الكلام في المعاني . وكذا ما يأتي في التعلق ولو قال : ثم البصر لكان أوضح .

والسمع والبصر صفتان أزليتان ينكشف بهما جميع الموجودات(١) انكشافًا تامًا . والانكشاف بهما يغاير الانكشاف بالعلم كما أن الانكشاف بإحداهما يغاير الانكشاف بالأخرى(٢) .

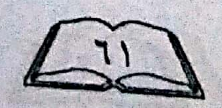
تفريعات على ما سبق :

ثم فرع على صفات المعاني في الجملة إذ التفريع إنما يظهر على الأربعة الأول قوله (**فهو الإله**) أي المعبود بحق (**الفاعل المختار**) أي الذي إن شاء فعل وإن شاء ترك ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص : ٦٨] لا أنه فاعل بالطبع أو بالعلة خلافًا للفلاسفة الملعونين . ولذا قالوا بقدم العالم ؛ لأنه يلزم من قدم العلة قدم المعلول . ونفوا عن اللّه تعالى صفاته الذاتية ، وهو مذهب باطل ، وكفر صراح .

---

(١) هذا رأي الأشعري والسنوسي . فالسمع يتعلق بالمسموعات وغيرها من الموجودات ، والبصر يتعلق بالمبصرات وغيرها من الموجودات ، وأما سعد الدين التفتازاني فيرى أن السمع يتعلق بالمسموعات فقط ، والبصر يتعلق بالمبصرات فقط .

(٢) ودليل هذه الصفات : (الكلام ، والسمع ، والبصر) ، نقلي من الكتاب والسنة والإجماع والتواتر . قال تعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ . وقال : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ ، والمشتق يدل على المشتق منه . وإنما كانت أدلتها نقلية ؛ لأن إيجاد العالم ليس متوقفًا عليها . وإن قيل : يمكن الاستدلال عليها بالعقل بأن يقال : لو لم يتصف بها ، لاتصف بضدها ، وضدها ، وهو نقض ، والنقض عليه محال . قلنا : إن النقص مشاهد في الحوادث ، ولا يقاس القديم على الحادث ؛ لأن كمال الحادث لا يلزم أن يكون كمالًا في حق اللّه . ألا ترى أن الزوجة والولد كمال في حق الحادث ، مستحيل في حق اللّه تعالى .



ومما يدل على بطلانه، تنوع العالم إلى أنواع مختلفة، فبعضه جماد، وبعضه حيوان، وبعضه ظلماني، وبعضه نوراني، وبعضه حلو، وبعضه مر، إلى غير ذلك، كما أشار له الكتاب العزيز في كثير من الآي. قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، فهذا يشير إلى أن هؤلاء الخاسرين ليسوا بعقلاء إذ فعل العلة والطبيعة ليس إلا شيئًا واحدًا غير مختلف. ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧- ٢٠]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٦، ٧]، ولكن من يضلل الله فما له من هاد.

ومما بنوه على مذهبهم عدم المعاد الجسماني، وقد زخرفوا مذاهبهم بشُبَه ظنية خيالية، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء: حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، فضلوا وأضلوا، حتى ظن كثير من الناس أن هذه الزخارف علم، بل فضلوا المتمسكين بها على علماء الشريعة ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٣، ٤].

واعلم أن من اشتغل بعلم الفلاسفة، قل أن تنجو عقيدته من ظلمة أقلها كثرة التشكيك والوسوسة التي تجره إلى الإبتداع أو إلى الكفر، والعياذ بالله تعالى، فالحذر من الاشتغال بخرافاتهم، على أن المطلوب من العبد إنما هو عبادة الله اعتقادًا وعملًا، لينجو من النار في الآخرة، والعلم من حيث إنه علم لا ينجي من عذاب الله ما لم يعمل به، والعبادة المطلوبة شرط صحتها العلم،



فينبغي للعاقل أن يقتصر من العلم على ما به العمل ، وهو العلم الشرعي ، وهو ثلاثة أنواع : علم أصول الدين ، وعلم الفقه ، وعلم التفسير ، وما يتصل بذلك من آلاتها . كعلم النحو والمعاني والبيان ، بخلاف علوم الفلاسفة ، فإنها بطالة إن سلم صاحبها من الضلال ، وإلا فهي عين الوبال .

نعم علم الطب ، وما يوصل إلى معرفة الوقت والجهات من علم النجوم ، فذلك جائز على أنا لا نسلم أن هذا من علم الفلاسفة ، بل هو من الشرعي بدليل : ﴿هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ [الأنعام : ٩٧] ، والأذن بالطب مشهور في السنة .

واعلم أن هذه الصفات السبع هي المتفق عليها بين القوم ، فلذا اقتصرت عليها ولم أزد ما زاد بعضهم من صفة الإدراك[1] ، لأن الحق فيها الوقف .

ولم أذكر الصفات المعنوية الملازمة للسبع المعاني . وهي كونه تعالى عالمًا ، وكونه حيًا ، وكونه تعالى قادرًا الخ لأن الحق ما ذهب إليه إمامنا إمام أهل السنة أبو الحسن الأشعري رضي اللّٰه تعالى عنه من أنها ليست بزائدة على المعاني ، بل هي عبارة عن قيام المعاني بالذات ، لا أن لها ثبوتًا في الخارج عن الذهن بناء على نفي الحال ، وأنه لا واسطة بين الموجود والمعدوم .



(١) التي قالوا أنها صفة تتعلق بإدراك المشمومات ، والملموسات ، والمذوقات .



تعلقات الصفات

● النَّظم :

٣٧- وواجبٌ تعليقُ ذي الصفاتِ حتمًا دوامًا ما عدا الحياةِ

٣٨- فالعِلمُ جَزْمًا والكلامُ السَّامِي تعلقا بسائرِ الأقسامِ

٣٩- وقدرةٌ إرادةٌ تعلَّقا بالممكناتِ كلِّها أخا التُّقَي

٤٠- واجزمْ بأنَّ سَمْعَه البَصَرَا تعلقا بكلِّ موجودٍ يُرَى

● **الشــرح :**

ولما فرغ من بيان صفات المعاني شرع في بيان تعلقها .

والتعلق : اقتضاء الصفة أمرًا زائدًا على قيامها بالذات ، كاقتضاء العلم معلومًا ينكشف به ، واقتضاء الإرادة مرادًا يتخصص بها ، واقتضاء القدرة مقدورًا ، وهكذا فقال :

(**وواجب**) عقلًا (**تعليق ذي**) أي هذه (**الصفات**) أي صفات المعاني (**حتمًا**) أي لزومًا (**دوامًا**) أي على سبيل الدوام والاستمرار ، وهذه من زيادة التأكيد ؛ لأن الواجب العقلي شأنه ذلك (**ما عدا الحياة**) بالجر فما زائدة ، وعدا حرف جر ، فيجب على كل مكلف أن يعتقد ذلك .

وحاصله : أن هذه الصفات بالنسبة للتعلق وعدمه أربعة أقسام :

قسم منها لا يتعلق بشيء ، وهو الحياة ، إذ هي صفة تصحح لمن قامت به الإدراك[1] من غير أن تطلب أمرًا زائدًا على قيامها بمحلها .

---

(١) فهي شرط عقلي ، يلزم من عدمها عدم الإدراك ، ولا يلزم من وجودها وجود الإدراك ولا عدمه . وهذا تعريف الحياة قديمة أو حادثة ، وتقدم تعريف القديمة .



وقسم يتعلق وهو ثلاثة أقسام :

الأول منها : ما يتعلق بجميع أقسام الحكم العقلي ، وهو صفتان : العلم والكلام وإليه أشار بقوله (**فالعلم جزمًا**) معمول لقوله تعلقًا قُدِّم عليه (**والكلام السامي**) أي العالي المرتفع القدر ، المنَزَّه عن الحروف والأصوات ، والتقديم والتأخير ، والسكوت واللحن ، والإعراب ، وغير ذلك مما يتصف به كلام الحوادث (**تعلقًا**) أي أن هاتين الصفتين تعلقًا جزمًا أي مجزومًا به (**بسائر**) أي بجميع جزئيات (**الأقسام**) أي أقسام الحكم العقلي الثلاثة : الواجب والمستحيل والجائز .

أما كونهما متعلقين فلأنهما طلبا أمرًا زائدًا على قيامهما بمحلهما ، إذ العلم يقتضي معلومًا ينكشف به ، والكلام يقتضي معنى يدل عليه .

وأما تعلقهما بجميع أقسام الحكم العقلي فظاهر إلا أن تعلقهما مختلف ، فتعلق العلم تعلق انكشاف ، وتعلق الكلام تعلق دلالة ، كما فهم مما ذكرته لك .

فالعلم يتعلق بجميع الكليات والجزئيات أزلًا وأبدًا ، بلا تأمل واستدلال ، ولا سبب من الأسباب ، فلا يوصف بالضروري ، ولا بالنظري ، وله تعلق واحد تنجيزي قديم .

والكلام يدل على ما ذكر دلالة مستمرة ، بلا انقطاع أزلًا وأبدًا ، فهو تعالى به آمر ناه مُخبر ، فهو في نفسه واحد ، وتكثره إنما هو بتكثر التعلقات ، كالعلم والقدرة ، ولذا قسّموه إلى أمر ونهي وخبر واستخبار ، فمن حيث اقتضاؤه فعلًا أو تركًا يسمى أمرًا ونهيًا ، ومن حيث تعلقه بثبوت أمر لأمر أو نفيه عنه يسمى خبرًا .

وهل يشترط في تسميته بذلك كالخطاب وجود المخاطبين بالفعل أو لا[1] ؟ خلاف ، وينبني عليه الخلاف في الأحكام هل هي حادثة أو قديمة ، باعتبار تنزيل من سيوجد منزلة الموجود اكتفاء بوجود المأمور في علم الآمر .

وله تعلقات ثلاثة :

تنجيزي قديم باعتبار دلالته على الواجبات ، والمستحيلات ، والجائزات التي سيوجد منها وما لا يوجد .

وصلوحي قديم باعتبار دلالته على الأمر والنهي قبل وجود المخاطبين .

وتنجيزي حادث عند وجودهم .

القسم الثاني ما يتعلق بجميع الممكنات ، وهو صفتان أيضًا : القدرة والإرادة ، وإليه أشار بقوله (**وقدرة**) و (**إرادة تعلقًا * بالممكنات**) لا بالواجبات ولا بالمستحيلات وأشار بقوله (**كلها**) يا (**أخا التقى**) أي يا أيها الملازم على التقوى للرد على المعتزلة القائلين بأن قدرته تعالى لا تتعلق بأفعال العبد الاختيارية ، بل العبد مستقل بخلق فعله الاختياري ، وإن بعض أفعاله الاختيارية كالمعاصي ليست بإرادة اللّٰه تعالى بناء على أن الإرادة تستلزم الأمر ، أو هي عينه ، ولا ريب في أنه مذهب فاسد ومن ثَمَّ أشرتُ بقولي : أخا التقى إلى أن من لم يعتقد ما قلنا فليس بتقي .

وهما وإن تعلقا بالممكن إلا أن تعلق الإرادة به تعلق تخصص ، إذ هي صفة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه .

ولها تعلقان قديمان تنجيزي وصلوحي :

فتخصيصها في الأزل الأشياء على الوجه الذي ستوجد عليه فيما لا يزال

---

(١) المعتمد أنه لا يشترط . وعليه فالأحكام قديمة . وهو رأي الإمام الأشعري .



تنجيزي قديم .

وصلوحها لأن يكون على خلاف ما هو عليه صلوحي قديم .

قيل : ولها تعلق ثالث ، تنجيزي حادث ، وهو تخصيصها الشيء بالفعل وقت وجوده على وفق التخصيص الأزلي[1] .

وأما تعلق القدرة به فتعلق إيجاد أو إعدام على طبق الإرادة ، ولها تعلقان : صلوحي قديم ، وتنجيزي حادث[2] ، وهذا التعلق الحادث هو المعبَّر عنه بالخلق ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة المسماة عندنا بصفات الأفعال ، فهي حادثة وسيأتي له زيادة إيضاح في قسم الجائز .

واعلم أن تعلق القدرة والإرادة والعلم مترتب ، فتعلق القدرة تابع لتعلق الإرادة ، وتعلق الإرادة تابع لتعلق العلم ، فلا يُوجد شيئًا أو يعدمه إلا إذا أراده ، ولا يريده إلا إذا علمه ، فما علم أنه يكون ، أراد كونه ، ثم أبرزه على طبق الإرادة ، وما علم أنه لا يكون فلم يرد كونه ، فلم يوجد ، وإن أمر به كالإيمان ممن علم اللَّه أنه يستمر على الكفر حتى الموت .

وإنما لم تتعلق القدرة والإرادة بالواجب والمستحيل ، لأنهما لما كان صفتي تأثير ، ومن لازم الأثر وجوده بعد عدم ، لزم أن ما لم يقبل العدم أصلًا وهو الواجب ، وما لم يقبل الوجود أصلًا وهو المستحيل ، لم يصح أن يكون أثرًا لهما ، وإلا لزم تحصيل الحاصل ، وقلب الحقائق[3] ، بصيرورة الواجب أو

---

(١) والتحقيق أن هذا الثالث ليس تعلقًا مستقلاً ، بل هو إظهار للتعلق التنجيزي القديم .

(٢) وليس للقدرة تعلق تنجيزي قديم ، حتى لا يلزم عليه قدم العالم .

(٣) يلزم تحصيل الحاصل : إن تعلقت بإيجاد الواجب ، أو بإعدام المستحيل ، ويلزم قلب الحقائق إن تعلقت بإعدام الواجب ، أو بإيجاد المستحيل .



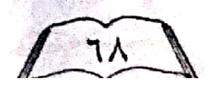
المستحيل جائزًا، وهو تهافت لا يعقل.

فالكمال المطلق في عدم تعلقهما بالواجب والمستحيل لما علمت والنقص الذي ما بعده نقص تعلقهما بهما المؤدي ذلك إلى إعدامهما أنفسهما، وإعدام الذات العلية، وإيجاد الشريك، والعجز، والجهل، نعوذ باللّٰه من الضلال الذي تمسك به بعض أهل الاختلال.

والقسم الثالث: ما يتعلق بجميع الموجودات، وهو صفتان أيضًا: السمع والبصر، وإليه أشار بقوله (**واجزم**) أيها المكلف (**بأن سمعه**) تعالى (**والبصرا**) الألف للإطلاق (**تعلقًا**) معا تعلق انكشاف (**بكل موجود يُرى**) بالبناء للمجهول، أي يعلم أي معلوم له تعالى قديمًا كان كذاته وصفاته أو حادثًا كذوات المخلوقين وصفاتهم.

والانكشاف بهما يغاير الانكشاف بالعلم، وكذا الانكشاف بكل منهما يغاير الانكشاف بالأخرى، ومتعلقهما أخص من متعلق العلم. فيسمع ويرى سبحانه الذوات والصفات كانت من قبيل الأصوات أو من غيرها، فسمعه وبصره تعالى يخالفان سمعنا وبصرنا في التعلق؛ لأن سمعنا إنما يتعلق عادة ببعض الموجودات، وهي الأصوات بشرط عدم البعد جدًّا. وبصرنا إنما يتعلق عادة ببعض الموجودات، وهي الأجسام وألوانها في جهة مخصوصة على وجه مخصوص.

كما أنهما يخالفان سمعنا وبصرنا أيضًا في الذات، فهما صفتان قديمتان قائمتان بذاته تعالى وأما سمعنا وبصرنا فحادثان قائمان بمحل مخصوص، فبصر قائم بإنسان العين، أو هو قوة مودعة في العصبتين المجوفتين اللتين يتلاقيان، ثم يفترقان كما هو مذهب الحكماء، وسمعنا قائم بالصماخ أي



ثقب الأذن ، أو هو قوة قائمة بالعصب المفروش في مقر الصباخ ، والله تعالى منزه عن ذلك .

وسمعُنا وبصرُنا من أسباب علومنا بخلاف سمعه وبصره تعالى .

ولهما تعلقات ثلاثة : تنجيزي قديم بذاته وصفاته تعالى وصلوحي قديم بذواتنا وصفاتنا ، وتنجيزي حادث عند وجودنا .



قدم صفاته تعالى

● النَّظم :

٤١- وكلُّها قديمةٌ بالذَّاتِ لأنها ليست بغيرِ الذَّاتِ

٤٢- ثم الكلامُ ليس بالحروفِ وليس بالترتيبِ كالمألوفِ

● الشـــرح :

(**وكلها**) أي صفات المعاني (**قديمة بالذات**) أي بذاتها . أي إنَّ قدمَها ذاتي ، وليست بممكنة في نفسها ، وإنما قِدَمُها بقِدمَ الذات المقدس ، أو أن[1] ذاته تعالى علة فيها كما قال بذلك بعض علماء أهل السنة[2] ، وهو قول شنيع ، تمجُّه قلوب الصالحين العارفين بربهم ، إذ لا يخفى ما فيه من إساءة الأدب بمقام اللّٰه الأعز الأحمى ، مع أنه لا حجة على ارتكابه . بل الحجة قائمة على ما ذكرنا ، كما أشرت له بقولي (**لأنها ليست بغير الذات**) العلية بمعنى أنها : لا تنفك عنها . فلا يعقل قيام الذات بدونها ، ولا وجودها في غير الذات المقدس ، فلا يصح القول بأنها ممكنة في نفسها ، أو[3] أن الذات العليَّة علة فيها .

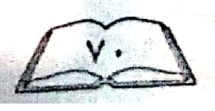
كما أنها ليست بغير الذات ، ليست بعينها أيضًا ، وهو واضح ، وإلا لزم أن

---

(١) كلمة (أو) بمعنى (الواو) ، فالمعنى : ليست ممكنة في نفسها ، وليست ذاته علة فيها .

(٢) قال الشيخ الصاوي في حاشيته : « هو الفخر الرازي ، وتبعه السعد ، والبيضاوي وجماعة . وشنَّع ابن التلمساني على الفخر بقوله : وصرَّح الفخر والعياذ باللّٰه بكلمة لم يُسبق إليها ، فقال : هي ممكنة باعتبار ذاتها ، واجبة بوجوب ذاته جلَّ وعلا . وضاهى قول الفلاسفة : العالم ممكن باعتبار ذاته ، واجب بوجوب مقتضيه . ونعوذ باللّٰه من زلة عالم » .

(٣) أو بمعنى الواو .



تكون الذات صفات ، وأن الحياة عين العلم مثلًا : وهو باطل ، فبطل ما ذهب إليه المعتزلة من أنه تعالى قادر بذاته ، وحي بذاته ، وعالم كذلك ، وهكذا لا بصفات زائدة على الذات ، تسمى بالقدرة والحياة وهكذا . لئلا يلزم تعدد القدماء المحال .

والجواب : أن المحال إنما هو تعدد ذوات ، أما ذات واحدة متصفة بصفات لا يصح الانفكاك عنها فليس بمحال ، بل هو الواجب ، وإنما اقتصرنا على الأول ؛ لأننا في مقام الاستدلال على أن قدمها ذاتي[١] .

ولما ذهب المعتزلة إلى استحالة الكلام عليه تعالى ، لأنه إنما يكون بحروف وأصوات ، وتقديم وتأخير ، وغير ذلك ، وهذه كلها حادثة ، ولا يصح اتصافه تعالى بالحوادث ، وإلا لكان حادثًا ، وصرفوا ما ورد في الكتاب والسنة من أنه تعالى متكلم عن ظاهره ، على معنى أنه خالق الكلام في غيره كالشجرة التي كلَّمت موسى عليه السلام مثلًا ، فالكلام صفة غيره . لا صفته تعالى .

أجاب أهل السنة بمنع حصر الكلام في الحروف والأصوات بجعلِ الكلام قسمين : لفظي ونفسي ، والثاني هو المراد . كما أشار إليه بقوله (**ثم الكلام**) أي كلامه تعالى الذي هو صفة ذاته نفسي (**ليس بالحروف**) والأصوات (**وليس**) متلبسًا (**بالترتيب**) من تقديم وتأخير (**كا**) لكلام الحادث (**المألوف**) لنا وحينئذ فلا يلزم المحال[٢] .

---

(١) الصفات إما : (أ) عين الذات : وهي النفسية . (ب) أو غير الذات : وهي السلبية ، لكون مدلولها عدمًا ، و(الفعلية) لحدوثها . (جـ) أو لا عين الذات ، ولا غيرها . وهي وجودية . وتسمى : (المعاني) . (د) أو لا عين الذات ، ولا غيرها . وهي اعتبارية . وتسمى : (معنوية) . أو صفات جامعة : وهي العزة ، والجمال ، والغنى ، وغير ذلك .

(٢) قال المعتزلة : الكلام لا يكون إلا حروفًا وأصواتًا . فلا يقوم بذاته تعالى لعدم قيام =

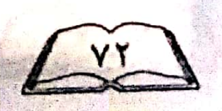


وفي قولي : وليس بالحروف إلخ . ردٌّ أيضًا على الكراهية ، والحنابلة[1] الزاعمين أن كلامه تعالى عرض من جنس الأصوات والحروف ، إلا أنه قديم قائم بذاته تعالى .



= الحوادث بذاته تعالى . وقالوا : معنى كونه متكلمًا : أنه خالق الكلام في غيره . ردَّ عليهم أهل السنة : بأن كلامنا النفسي ليس بحرف ولا صوت ، وهو كلام حقيقة ، وإن اختلفت حقيقة كلامه النفسي عن حقيقة كلامنا .

(١) المراد بالحنابلة : فرقة ضالة تزعم انتسابها إلى الإمام أحمد . يقولون : إن كلامه تعالى حروف وأصوات ، وهو قديم ، وقائم بذاته تعالى . بخلاف الكرامية الذين قالوا : إن كلامه حروف وأصوات حادثة . وتقوم بذاته تعالى .



ما يستحيل عليه تعالى

● النَّظم :

٤٣- ويستحيلُ ضِدُّ ما تقدَّما   من الصفاتِ الشامخاتِ فاعلما

٤٤- لأنه لو لم يكن موصوفًا   بها لكان بالسِّوَى معروفًا

٤٥- وكلَّ مَن قام به سِواها   فهو الذي في الفقرِ قد تناهَي

٤٦- والواحدُ المعبودُ لا يفتقرُ   لغيرِه جلَّ الغَنيُّ المُقتَدِرُ

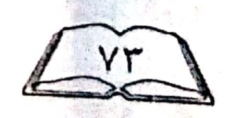
● الشــرح :

ولما فرغ سامحه اللَّه تعالى من القسم الأول ، وهو ما يجب للَّه تعالى ، شرع في بيان القسم الثاني ، وهو ما يستحيل عليه تعالى فقال (**ويستحيل**) عليه تعالى (**ضد ما تقدما**) الألف للإطلاق (**من الصفات**) بيان لما أي : الصفات النفسية والسلبية والمعاني (**الشامخات**) أي المرتفعات المنزهات عن الحدوث ولوازمه (**فاعلما**) أصله ، فاعلمن ، بنون التوكيد الخفيفة ، فقلبت في الوقف ألفًا ، والمراد بالضد هنا الضد اللغوي . وهو مطلق المنافي . سواء كان وجوديًا أو عدميًا ، فكأنه قال ويستحيل عليه تعالى كل ما ينافي ما تقدم من الصفات ، لا الضد الاصطلاحي على ما سيأتي .

أنواع المنافاة :

وأنواع المنافاة عند المناطقة أربعة[1] ، تنافي النقيضين ، وتنافي الضدين ،

(١) ووجه الحصر فيها أنَّ المتقابلين إما أن يكونا وجوديين ، أو وجوديًا وعدميًا : فإن كانا وجوديين ، فلا يخلو أن يتوقف تعقل احدهما على تعقل الآخر . أو لا .
الأول : المتضافيان . كالأبوة والبنوة . والثاني : الضدان كالبياض والسواد ، وإن كان أحدهما وجوديًا ، والآخر عدميًا ، فإن اعتبر في العدمي كون محله قابلاً للوجودي ، =



وتنافي العدم والملكة ، وتنافي المتضايفين .

أما النقيضان فهما : إيجاب الشيء وسلبه . نحو : زيد لا زيد ، وزيد قائم ليس بقائم .

وأما الضدان فهما : المعنيان الوجوديان اللذان بينهما غاية الخلاف ، ولا يتوقف تعقل أحدهما على تعقل الآخر ، كالبياض والسواد ، واحترزنا بغاية الخلاف من نحو البياض مع الحركة[1] .

وأما العدم والملكة فهما : وجود الشيء وعدمه عما من شأنه أن يتصف به[2] كالبصر والعمى ، والعلم والجهل البسيط ، فالبصر وجودي وهو الملكة ، والعمى عدمي[3] ، إذ العمى عدم البصر عما من شأنه البصر ، وكذا العلم والجهل .

وأما المتضايفان فهما : الأمران الوجوديان اللذان بينهما غاية الخلاف ، ويتوقف تعقل أحدهما على تعقل الآخر ، كالأبوة والنبوة ، والمراد بالوجودي في المتضايفين ما ليس معناه عدم كذا ، لا الموجود في الخارج عن الذهن ، إذ الأبوة مثلًا لا وجود لها في الخارج عن الذهن .

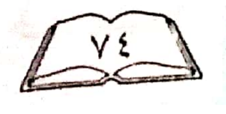
ولا تنافي بين الخلافين كالبياض والحركة ، وكذا بين المثلين كالبياض

= كالبصر والعمى بالنسبة لزيد . لا بالنسبة للحائط : فعدم وملكة ، وإن لم يعتبر ذلك ، فتقابل النقيضين . كسواد ، ولا سواد .

(١) البياض والحركة يمكن اجتماعهما في محل ، فليسا ضدين .

(٢) الملكة هي : الأمر الوجودي القائم بالشيء . كالبصر القائم بالعين . والعدم : انتفاء تلك الملكة عن المحل الذي شأنه أن يتصف بها وقت انتفائها .

(٣) العمى عدمي : هذا رأي الحكماء . وعند المتكلمين : العمى وصف وجودي . قائم بالعين كالبصر . وحينئذٍ فالتقابل بينهما من تقابل الضدين .



والبياض ، والمحققون على التنافي بينهما ، قالوا : لأن المحل لو قبل المثلين لزم أن يقبل الضدين ، لأن القابل للشيء لا يخلو عنه ، أو عن ضده ، أو عن مثله ، فلو قبل المثلين لجاز وجود أحدهما في المحل مع انتفاء الآخر ، فيخلفه ضده ، فيجتمع الضدان ، وهو محال .

الصفات المستحيلة على اللّٰه تعالى :

إذا علمت ذلك ، فيستحيل عليه تعالى ثلاث عشرة صفة ، وهي أضداد الصفات الأولى ، لما علمت أنها واجبة له تعالى ، والواجب لا يقبل الانتفاء .

فيستحيل عليه تعالى : العدم ، والحدوث ، وطرو العدم ، ويسمى الفناء .

والمماثلة للحوادث من جرمية ، أو عرضية ، أو حلول ، أو اتصال ، أو انفصال ، أو بعد أو قرب ، أو كبر أو صغر .

وكذا يستحيل عليه تعالى عدم القيام بنفسه ، بأن يفتقر إلى محل ، أو مخصص .

وعدم الوحدانية بأن يكون ذا كثرة في ذاته ، أو صفاته ، أو يكون له شريك في فعل من الأفعال .

وكذا يستحيل عليه تعالى الجهل مركبًا أو بسيطًا ، أو ما في معناه من ظن ، أو غفلة ، أو نيسان ، أو نوم ، أو اشتغال بشأن عن شأن .

ويستحيل عليه تعالى الموت والعجز وما في معناه من فتور ، أو نصب .

والكراهية ، أي عدم الإرادة بأن يقع في ملكه ما لا يريده ، أو تصدر الكائنات عنه تعالى بالتعليل ، أو بالطبع ، لما يلزم من قدم العالم الذي قام البرهان القاطع على حدوثه ، وورد الشرع به ؛ لأنه يجب اقتران العلة بمعلولها ، والطبيعة بمطبوعها ، والقائل بذلك كافر بإجماع المسلمين . كما تقدم ،



وتقدم الفرق بين الفاعل بالعلة ، والفاعل بالطبع ، من أن العلة لا تتوقف على وجود شرط ، ولا انتفاء مانع ، والطبيعة تتوقف على ذلك ، ومما يدل على بطلانها اختلاف أنواع العالم على كثرتها ؛ إذ معلول العلة والطبيعة لا يختلف .

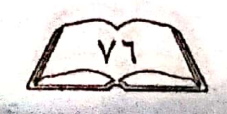
وكذا يستحيل عليه تعالى البكم ، أي عدم الكلام بوجود آفة تمنع منه ، وفي معناه السكوت النفسي .

ويستحيل عليه تعالى الصمم ، والعمى تعالى اللّٰه عن ذلك علوًا كبيرًا .

وإنما وجبت له هذه الصفات ، واستحال عليه أضدادها (**لأنه**) تعالى (**لو لم يكن موصوفًا * بها لكان بالسوى**) أي بسواها من الجهل والعجز وغيرهما مما تقدم من المستحيلات (**معروفًا**) يعني موصوفًا أي أنه لو لم يكن متصفًا بها ، لاتصف بأضدادها ، لكن اتصافه تعالى بأضدادها باطل ؛ لما يلزم عليه من الافتقار والحدوث ، كما أشار له بقوله :

(**وكل من قام به سواها**) أي غيرها من الجهل أو ما في معناه ، أو العجز إلى آخر الأضداد (**فهو الذي في الفقر**) أي الاحتياج إلى من يكمله وهو متعلق بقوله (**قد تناهى**) أي بلغ النهاية في الفقر ، وهو محال ، لأنه يؤدي إلى الحدوث ، فيكون من جملة العالم الحادث المفتقر .

والواو في قولنا : (**والواحد المعبود**) للحال (**لا يفتقر * لغيره**) وهو في المعنى دليل لقولنا ، وكل من قام به الخ لأنه في قوة قولنا : لأنه معبود لا يفتقر لغيره ، وقد حذفنا كبرى القياس مع النتيجة ، والتقدير وكل من تناهى في الفقر فهو حادث ، فكل من قام به سواها فهو حادث ، كما أشرنا له في التقرير وهذا القياس دليل الاستثنائية المطلوبة أعني قولنا : لكن اتصافه بأضدادها باطل . كما



أشرنا له أيضًا (**جل**) عن ذلك الافتقار (**الغنى**) بالسكون للوزن أي عن كل ما سواه لاتصافه تعالى بكل كمال ، وتنزهه عن كل نقص ، (**المقتدر**) على كل شيء ، وكل شيء فهو إليه فقير .



Scanned by CamScanner

ما يجوز عليه تعالى

• النَّظم:

٤٧- وجائزٌ في حقه الإيجادُ   والتركُ والإشقاءُ والإسعادُ

٤٨- ومَنْ يقلْ فعلُ الصلاح وجبا   على الإلهِ قد أساءَ الأدبا

• الشــرح:

ولمَّا أنهى الكلام على قسمي الواجب والمستحيل، شرع في بيان الجائز فقال (وجائز في حقه) تعالى (الإيجاد) أي إيجاد الممكنات سواء وجدت بالفعل أو لم توجد، والإيجاد والخلق بمعنى واحد، وهو تعلق القدرة بوجود المقدور، فإن تعلقت بالحياة سمي إحياء، وبالموت سمي إماتة، وبالمرزوق سمي رزقًا، وترزيقًا، وهذه التعلقات هي المسماة بصفات الأفعال. وهي حادثة كما ترى، لأنها عبارة عن التعلق التنجيزي للقدرة، وهو حادث قطعًا.

فإن قلت: قد تقدم أن تعلق القدرة واجب فكيف يحكم عليه هنا بالجواز.

قلت: الواجب التعلق الصلوحي القديم، أما التنجيزي فجائز، وكل جائز؟ حادث.

فإن قلت: الخلق والإيجاد من صفاته تعالى. وكيف يتصف تعالى بالحوادث.

قلنا: هذه أمور اعتبارية، تعرض القدرة، لا وجود لها في الأذهان، ولا تحقق لها في نفسها، ككونه قبل العالم، ومعه، وبعده، فلا يلزم قيام الحوادث به تعالى.

(والترك) أي ترك الإيجاد للممكنات سواء وجدت أو لم توجد. يعني أن إيجاد كل ممكن أو تركه أمر جائز في حقه تعالى. إن شاء فعل وإن شاء ترك،

ومن ذلك بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ورؤية الباري تعالى وإثابة العاصي، وتعذيب المطيع.

الشقاوة والسعادة:

(**والإشقاء**) وهو خلق قدرة الكفر، أو خلق الكفر في العبد[1]، والعياذ بالله تعالى، ويسمى الخذلان والإضلال، وقيده الأشعري بحالة الموت، وأطلقه الماتريدي.

(**والإسعاد**) وهو خلق قدرة الطاعة. أو هو خلق الطاعة في العبد. ويسمى بالهداية، وقيده الأشعري بحالة الموت، فالشقي والسعيد من مات على الكفر، أو الإيمان، وعند الماتريدي هو الكافر أو المؤمن[2].

وينبني على هذا الخلاف: هل الشقاوة والسعادة يتبدلان؟

فقال الأول: لا[3]، والثاني، نعم[4]: والخلف لفظي[5].

---

(١) خلق قدرة الكفر: هذا تعريف إمام الحرمين. وقوله: أو خلق الكفر في العبد: هذا تعريف الأشعري. والمراد بالقدرة عند إمام الحرمين: سلامة الأسباب والآلات .بناء على أن العرض يبقى زمانين. والمراد بها عند الأشعري: العرض المقارن للفعل بناء على أن العرض لا يبقى زمانين.

(٢) أي: فعند الأشعري: الشقيّ: من مات على الكفر. والسعيد: من مات على الإيمان، وعند الماتريدي: الشقي: هو الكافر مطلقًا، والسعيد: هو المؤمن مطلقًا.

(٣) لأن السعادة عنده هي: الموت على الإيمان باعتبار تعلق علم الله بذلك أزلاً. والشقاوة هي الموت على الكفر باعتبار تعلق علم الله بذلك أزلًا. فهما أزليتان، لا يتبدلان، والإسلام علامة السعادة، والكفر علامة الشقاوة.

(٤) لأن الماتريدي يرى أن المسلم إذا مات على الكفر: انقلبت سعادته شقاوة، وأن الكافر إذا أسلم عند الموت، انقلبت شقاوته سعادة.

(٥) لأن العبرة بالخاتمة على كلا المذهبين. والخلاف في التسمية فقط. فالأشعري يقول: =



وأما الإشقاء أو الإسعاد ، فلا يتبدلان اتفاقًا .

أما عند إمامنا الأشعري ؛ فلأنهما الإماتة على الشقاوة أو السعادة ، فهما من صفات الأفعال ، وهي عنده حادثة ؛ لأنها عبارة عن تعلق القدرة بالمقدور كما مرَّ .

وأما عند الماتريدي ؛ فلأنهما قديمان . كالإحياء والإماتة ، والخلق والرزق ، وجميع ما نُعبِّر عنه بصفات الأفعال . فقد جزم الماتريدية بقدمها ، ومجموعها عند محققيهم عبارة عن صفة واحدة تسمى بالتكوين قائمة بذاته تعالى لكونها صفة معنى ، كالقدرة والإرادة ، يتأتى بها وجود الأشياء على وفق الإرادة .

والفرق بينها وبين القدرة أن القدرة : عندهم بها صحة التأثير في الممكن[1] ، والتكوين به وجود الأشياء .

وحاصله : أنه لا يصح أن يكون مبدأ لوجود القدرة لأن أثرها صحة الفعل والترك من الفاعل ، فتكون نسبتها إلى الطرفين على السواء فلا بد من صفة أخرى بها الصدور ، وهي التكوين . فهي ليست التعلق التنجيزي للقدرة حتى تكون حادثة وجائزة ، والجائز إنما هو الحدوث[2] وعدمه ، لا الإيجاد ، فإنه قديم لكونه صفة ذاته تعالى ، فالإشقاء والإسعاد لا يتبدلان لقدمهما ، لما علمت أنهما يرجعان إلى التكوين الذي هو صفة ذاته تعالى .

= الإسلام علامة على السعادة لا نفسها ، والكفر علامة على الشقاوة لا نفسها ، والماتريدي يقول : الإسلام هو السعادة : والكفر هو الشقاوة .

(١) أي تهيئته لقبول الوجود أو العدم .

(٢) أي الذي هو أثر الإحداث . فالإحداث عنده قديم ، والحدوث حادث .



والشقاوة والسعادة يتبدلان لأنهما الكفر والإيمان لا بقيد الموت على ذلك ولا يلزم من قدم التكوين قدم المكون ؛ إذ لا يلزم من قدم الصفة قدم متعلقها.

وجملة القول في ذلك أن الإيجاد، والخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والإشقاء، والإسعاد، والتصوير، إلى غير ذلك عند الأشعرية صفات حادثة؛ لأنها إضافات، واعتبارات بين القدرة والمقدور.

وعند الماتريدية قديمة، لأنها صفة أزلية بها صدور العالم، وكل جزء من أجزائه، وتسمى تكوينًا. لكن إن تعلقت بوجود الشيء سميت إيجادًا وخلقًا، أو بموته سميت إماتة، أو بصورته سميت تصويرًا، وهي زائدة على القدرة والإرادة، فالإرادة بها التخصيص، والقدرة هي القوة على فعل الشيء أو تركه، ونسبة الأمرين إليها على السواء، فليس بها صدور الأشياء، و إنما بها قبول الصدور، فهي مبدأ لقبول الصدور، والتكوين مبدأ لنفس الصدور.

والمحققون من الأشاعرة على أنه ليس في الأزل إلا مبدأ الإيجاد، والإشقاء، والإسعاد، وغير ذلك، ولا دليل على صفة أخرى سوى القدرة، والإرادة فإن القدرة وإن كان نسبتها إلى وجود المكون وعدمه على السواء، لكن مع انضمام الإرادة يتخصص أحد الجانبين.

وإنما نص على الإشقاء والإسعاد، وإن دخلا في الإيجاد اهتمامًا بشأنهما.

الصلاح والأصلح:

ودخل في الجائز رعاية الصلاح والأصلح(١)، إذ لو وجب عليه تعالى ما هو

(١) الصلاح يكون في مقابلة الفساد، والأصلح في مقابلة الصلاح، فإن كان الأمر يدور بين الصلاح والفساد، أوجب المعتزلة على الله فعل الصلاح، وإن كان يدور بين الصلاح والأصلح، أوجبوا عليه فعل الأصلح.



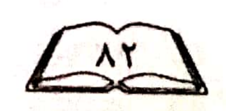
الأصلح في حق العبد ما وقعت محنة، وما خلق اللّٰه تعالى الكافر الفقير المعذب دنيا وأخرى، وما حصل ألم لطفل لا تكليف عليه، ولما كانت بعض البهائم والطيور في غاية الضعف والبلاء، ولما كان لطلب الهداية وكشف الضر معنى لوجوب إيصال ما هو الأصلح للعبد، ولما بقي في قدرة اللّٰه تعالى بالنسبة إلى مصالح العباد شيء آخر؛ إذ قد أتى على ما في وُسْعه من الأصلح الواجب.

(**ومن يقل فعل الصلاح وجبا**) الألف للإطلاق (**على الإله**) تعالى. وهم المعتزلة (**قد أساء**) حذف الفاء ضرورة أي فقد أحزن (**الأدبا**) اللائق بحقه تعالى، والألف للإطلاق أيضًا، ففي الأدب استعارة بالكناية. وفي الإساءة استعارة تخييلية، ثم الكلام كناية عن عدم اتصافهم بالأدب؛ لأنه يلزم من إساءتك لغيرك بعده عنك، ونفرته منك، بل لا يستطيع أن ينظر إليك، وهي أبلغ من الحقيقة. يعني أنهم أخلوا بالأدب مع اللّٰه تعالى غاية الإخلال، حتى خلت قلوبهم عن بوارق الإجلال، وارتكبوا بدعة شنيعة، وقوة فظيعة، وذلك لأن من وجب عليه شيء، فهو مقهور.

ثم لا يصح أن يراد بالوجوب عليه تعالى ما يستحق تاركه الذم والعقاب كما في حق المكلفين، وهو ظاهر فما بقي إلا أن معناه لزوم صدور الأصلح عنه بحيث لا يتمكن من الترك، وإلا فلا معنى للوجوب.

وأقوى ما تمسكوا به في ذلك أن ترك الأصلح يستلزم المحال من سفه، أو جهل، أو عبث، أو بخل، وظاهر أنه رفض لقاعدة الاختيار، وتمسك بالفلسفة الظاهرة العوار.

وحكى أن الإمام أبا الحسن الأشعري رضي اللّٰه عنه سأل شيخه أبا علي



الجبائي[١] ، وهو يقرر مسألة وجوب الصلاح فقال له : ما تقول في ثلاثة إخوة مات أحدهم مطيعًا ، والآخر عاصيًا ، والثالث صغيرًا فقال : الأول يثاب في الجنة ، والثاني يعاقب في النار ، والثالث لا يثاب ولا يعاقب ، فقال الأشعري : فإن قال الثالث يا رب لِمَ أمتني صغيرًا ، ولم تبقني إلى أن أكبر فأطيعك لأثاب في الجنة . فقال الجبائي : يقول الرب تعالى إني كنت أعلم منك أنك لو كبرت لعصيت فدخلت النار ، فكان الأصلح لك موتك صغيرًا ، فقال الأشعري : فإن قال الثاني : يا ربِّ لِمَ لَمْ تمتني صغيرًا لئلا أعصي فأدخل النار ؟ فماذا يقول الرب ؟ فَبُهِتَ الجبائي .

ويروى أنه قال للأشعري أبك جنون ؟ فقال الأشعري : ولكن وقف حمار الشيخ في العقبة فترك الأشعري مذهبه واشتغل هو ومن معه بإبطال رأي المعتزلة ، وإثبات ما وردت به السنة ، ومضى عليه الجماعة فسموا أهل السنة والجماعة .

وسبب تسمية المعتزلة معتزلة أن رئيسهم واصل بن عطاء[٢] اعتزل عن مجلس الحسن البصري[٣] يقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، ويثبت المنزلة بين المنزلتين . فقال الحسن : قد اعتزل عنا واصل .

---

(١) هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي ، رئيس المعتزلة في عصره ، وإليه تنسب (الجبائية) ، له آراء انفرد بها في المذهب ، ت٣٠٣هـ . الأعلام ٦/ ٢٥٦ .

(٢) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة ، وإليه تنسب : (الواصلية) ، من كتبه : أصناف المرجئة ، ت ١٣١ . الأعلام ٨/ ١٠٩ .

(٣) هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري ، حبر الأمة في عصره ، شبَّ في كنف علي بن أبي طالب . لا يخاف في الحق لومة ، عند وعظ الولاة ، أشبه الناس كلامًا بكلام الأنبياء ، لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، كتب إليه : إني قد ابتليت بهذا الأمر ، فانظر لي أعوانًا =



رؤية اللّٰه تعالى

● النَّظم :

٤٩- واجزمْ أخي برؤية الإلهِ   في جَنَّةِ الخُلدِ بلا تَناهي

٥٠- إذ الوقوعُ جائزٌ بالعقلِ   وقد أتى فيه دليلُ النقلِ

● الشـــرح :

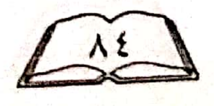
(واجزم) أي اقطع واعتقد وجوبًا[1] (أخي) في الإسلام إذ الأب الذي خرجنا بسببه من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان واحد، وهو النبي عليه الصلاة والسلام (برؤية الإله) سبحانه وتعالى، بمعنى الانكشاف التام بالبصر أي بوقوعها (في جنة الخلد) أي الإقامة على سبيل الدوام حال كون الرؤية حاصلة (بلا تناهي) للمرئي تعالى أي من غير إحاطة بحدود المرئي ونهاياته، لاستحالة الحدود والنهايات عليه تعالى، فكما أنهم يعلمونه بلا حد ونهاية، وبلا كيف، يرونه كذلك.

فيرى لا في مكان، ولا في جهة، ولا باتصال شعاع، ولا على مسافة بينه تعالى وبين الرائي، لأن الرؤية عندنا بخلق اللّٰه تعالى في أي محل شاء، وليس بلازم أن لا يكون إلا عند اجتماع الشرائط، كما سيأتي توضيحه.

وتقع لكل من دخل الجنة من إنس وجن من هذه الأمة وغيرها حتى النساء والصبيان، وتتفاضل الرؤية: كما وكيفا ولذة على قدر العلم باللّٰه تعالى، وحبّه

= يعينوني عليه. فأجابه الحسن: أما أبناء الدنيا فلا تريدهم، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك، فاستعن باللّٰه، ت ١١٠هـ. الأعلام ٢/٢٢٦.

(١) أي وجوبًا شرعيًا.



في الدنيا ، حتى إن البعض لا تنقطع عنه أبدًا ، كما أنه كان في الدنيا لا يتعلق قبله بغير اللَّه تعالى أبدًا ، كذا ذكروا .

(**إذ الوقوع**) أي وقوع رؤيته تعالى (**جائز بالعقل**) إذ العقل إذا خلى ونفسه ، لم يحكم بامتناعها .

وتقرير الدليل العقلي : أنا قاطعون برؤية الأعيان ، والأعراض ضرورة أنا نميز بين الأعيان والأعراض ، ولا بد للحكم من علة مشتركة بينهما ، وهي إما الوجود ، أو الحدوث ، أو الإمكان ، إذ لا رابع لها يشترك .

والحدوث : الوجود بعد العدم ، والإمكان : استواء الوجود والعدم ، ولا مدخل للعدم في الرؤية ضرورة ، فتعين الوجود ، وهو مشترك بين اللَّه وبين غيره فصحَّ أن يُرى لتحقق العلة ، وهي الوجود ، فيصح أن تُرى سائر الموجودات من الطعوم ، والروائح ، والأصوات ، وعدم رؤيتها لكون اللَّه تعالى لم يخلق في العبد رؤيتها بطريق جَرْيِ العادة .

وقد استدل على الجواز أيضًا بدليل سمعي وهو أن موسى عليه الصلاة والسلام قد سألها بقوله تعالى : ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، فلو لم تكن جائزة ما سألها ، وإلا كان طلبها إما جهلًا بأحكام الألوهية ، وإما سفهًا أو عبثًا بطلب المحال ، والأنبياء منزهون عن ذلك كله .

وأن اللَّه تعالى قد علَّقها على ممكن ، وهو استقرار الجبل ، والمعلَّق على الممكن ممكن ؛ إذ معنى التعليق الإخبار بوقوع المعلَّق عند ثبوت المعلَّق عليه ، والمحال لا يقع على شيء من التقادير الممكنة ، فلو لم تكن ممكنة لزم الخلف في خبره تعالى ، وهو محال .

وما قيل من أن سؤال موسى عليه السلام لم يكن لتحصيل مطلوبه ، وإنما



كان لتعليم قومه أنها ممتنعة حين قالوا له : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة : ٥٥] ، ولا نسلم أن المعلق عليه ممكن بل هو استقرار الجبل حال تحركه ، وهو محال .

فجوابه أن كلا من ذلك خلاف الظاهر ، فلا وجه للحمل عليه ، على أن قومه إن كانوا مؤمنين كفاهم قوله لهم : إنها ممتنعة ، وإلا لم يصدقوه ، في حكم الله بالامتناع فالسؤال عبث على كل حال .

والاستقرار حال التحرك ممكن بأن يقع السكون بدل الحركة ، إنما المحال اجتماع الحركة والسكون .

(وقد أتى فيه) أي في وقوع الرؤية للمؤمنين **(دليل النقل)** من الكتاب والسنة وأجمعت الأمة على ذلك قبل ظهور البدع بإبقاء النصوص الواردة على ظاهرها من غير تأويل ، وكل ما هو كذلك فالجزم به واجب .

أما الكتاب : فقوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢- ٢٣] .

وأما السنة فغير ما حديث منها قوله ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر »[1] . وهو حديث مشهور .

وخالف في ذلك المعتزلة فأحالوها متمسكين بشُبَه . أقواها شبهة المقابلة .

وتقريرها أنه تعالى لو كان يُرى ، لكان مقابلًا للرائي ضرورة ، فيكون في جهة وحيز ، ويلزم اتصال الأشعة من الباصرة بالمرئي ، والمسافة بين الرائي والمرئي ، بحيث لا يكون بعيدًا جدًا ، ولا قريبًا جدًا ، ولكان المرئي إما جوهرًا ، وإما عرضًا ، ولكان المرئي إما كله ، فيلزم التناهي والحَصْر ، وإما

---

(١) رواه مسلم في الإيمان ١/ ١٦٤.



بعضه ، فيلزم التبعيض والتجزؤ ، واللوازم كلها محالة ؛ فالملزوم مثلها .

وحاصل الجواب ما أشرنا له سابقًا من أن الرؤية عبارة عن نوع من الإدراك يخلقه اللَّه متى شاء ، ولأي شيء شاء ، في أي محل شاء ، فلا يلزم ما ذكر ، وقياس الغائب على الشاهد فاسد . فكما أن العلم إدراك ، وهم يعلمونه لا في مكان ، ولا جهة ، ولا محدودًا ولا محصورًا ، فكذا الرؤية نوع من الإدراك فيدركونه كذلك ، ومع ذلك هو انكشاف تام كما نص عليه النبي ﷺ في كثير من الأحاديث .

وبالجملة فالمعتزلة في مخالفتهم لأهل السنة قد مالوا عن الحق إما لتمسكهم بالعادات ، وإما لميلهم إلى القواعد الفلسفية . واللَّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقولي : في جنة الخلد . لأنها محل الرؤية باتفاق أهل السنة .

وأما في عرصات القيامة ففي السُّنَّة ما يقتضي وقوعها فيها للمؤمنين أيضًا . وهو الصحيح . بل قيل : وللكفار ليكون الحجب عليهم حسرة ، ولا مانع من أن يروه في صفات الجلال .

وأما رؤيته تعالى في المنام ، فقد وقعت لكثير من الصالحين من سلف الأمة وخلفهم ، ولا خفاء في أنها نوع مشاهدة تكون بالقلب ، لا بالعين والمعتمد أن النبي ﷺ رآه ليلة الإسراء بالبصر لا بالقلب فقط .



صفات الرسل، وحكم إرسالهم

● النَّظم:

٥١- وَصِفْ جميعَ الرُّسْلِ بالأمانهْ ... والصِّدقِ والتبليغِ والفَطَانهْ

٥٢- ويستحيلُ ضِدُّها عليهمُ ... وجائز كالأَكلِ في حَقِهِمُ

٥٣- إرسالُهم تفضلٌ ورحمه ... للعالمين جلَّ مُولى النِّعْمَه

● الشـــرح:

ولما فرغ من القسم الأول من أقسام هذا الفن، وهو الألوهيات، شرع في القسم الثاني وهو النبوات، فقال:

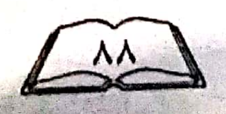
الصفة الأولى:

(**وصف**) أيها المكلف وجوبًا (**جميع الرسل**) بسْكون السين للضرورة، أي يجب عليك أن تعتقد أنهم عليهم الصلاة والسلام متصفون (**بالأمانة**) وهي حفظ اللّٰه تعالى بواطنهم وظواهرهم من التلبس بمنهي عنه ولو نهى كراهة، ولو حال الطفولية، وهي المسماة بالعصمة.

إذ لو جاز عليهم أن يخونوا اللّٰه تعالى بفعل محرَّم أو مكروه، للزم أن يكون ذلك المحرم أو المكروه طاعة، بيان الملازمة أن اللّٰه تعالى قد أمرنا باتباعهم في أقوالهم وأفعالهم من غير تفصيل إلا فيما ثبت اختصاصهم به عن الأمة، وحينئذ فكل ما صدر منهم، فنحن مأمورون به، وكل مأمور به فهو طاعة، لأن اللّٰه تعالى لا يأمر بالفحشاء.

الصفة الثانية:

(**والصدق**) أي في دعواهم الرسالة: وفي تبليغهم الأحكام، وهو مطابقة



حكم الخبر للواقع قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣].

ولأنهم لو جاز عليهم الكذب للزم الكذب في خبره تعالى، لأنه تعالى صدَّقهم بالمعجزة النازلة منزلة قوله: صدق عبدي في كل ما يبلغ عني، وتصديق الكاذب كذب محض، والكذب على اللّٰه محال؛ لأنه نقص، وما أدى إلى المحال محال.

تعريف المعجزة:

والمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة.

فدخل في قولنا: أمر الفعل والترك كعدم إخراق النار لإبراهيم.

وقولنا: خارق الخ احتراز من أن يتمسك بالعادات.

وقولنا: مقرون بالتحدي أي دعوى الرسالة احتراز من كرامات الأولياء والإرهاصات وهي ما تتقدم بعثة الأنبياء تأسيسًا لها.

وقولنا مع عدم المعارضة احتراز من السحر والشعوذة.

نبوة نبينا محمد ﷺ:

وسيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ وعلى والديه، وأولاده، وآله، وصحبه، وأمته قد ادعى أنه رسول اللّٰه إلى الإنس والجن، بل إلى الخلق جميعًا، وأظهر المعجزة على دعواه.

أما دعواه الرسالة، فقد علم بالتواتر، حتى لا ينكر ذلك مؤمن ولا كافر.

وأما إظهار المعجزة فلوجهين:

أحدهما: أنه أظهر كتابًا من عند اللّٰه تعالى، وتحدى به مع كمال بلاغتهم، وقوتهم على معرفة أساليب الكلام، وطلب من إنسهم وجنهم ذلك، فلم يقدروا على المعارضة - ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ



هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] أي معينًا .

فتحدى بعشر سور ، فلم يقدروا .

فتحدى بسورة الصادق بأقصر سورة ، فلم يقدروا على المعارضة مع شدة حرصهم على ذلك ، حتى خاطروا بمهجهم ، وأعرضوا عن المعارضة بالحروف ، إلى المقارعة بالسيوف .

ولم ينقل عن واحد منهم مع توفر دواعيهم الإتيان بشيء مما يدانيه ، بل جعل الكذاب[1] أن يعارضه فأتى بخرافات مضحكة ، ما سمعها أي إنسان إلا وضحك ، وعلم أنها هذيان كما في معارضته لسورة الكوثر بقوله : إنا أعطيناك العقعق ، فصل لربك وازعق ، إن شانئك هو الأبلق ، وكما في معارضته سورة الفيل بقوله : الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب طويل ، ومشفر وتيل ، وما أحسن قول شرف الدين الأبوصيري في البردة :

رَدَّتْ بلاغتها دعوى مُعَارِضِها ... رَدَّ الغيور يدَ الجاني عن الحُرَمِ

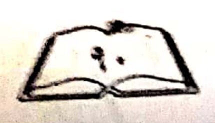
ثانيهما : أنه نقل عنه عليه الصلاة والسلام من خوارق العادات ما بلغ القدر المشترك من حد التواتر ، وإن كان تفاصيلها آحادًا : كتسبيح الحصى ، في كفه وتكليم الجمادات ، والحيوانات ، ونبع الماء من الأصابع ، وظهور البركة في الأطعمة ، والأشربة ، وغير ذلك مما لا يُحصى كثرة[2] .

هذا مع ما كان عليه من حسن الخُلُق الذي لا يراه أحد إلا ويقطع أنه ليس

---

(١) يقصد مسيلمة الكذاب ، الذي ادعى النبوة في أواخر زمن النبي ﷺ .

(٢) ذكر الإمام النووي في مقدمته لشرح صحيح الإمام مسلم أن معجزاته ﷺ الحسية قد زادت على ألف ومائتي معجزة .



بكذاب ، وإن كان يقع من الضالين العناد ، ومن كمال خلقه : تمام الحلم والعلم مع كونه ولد في قوم لا يعرفون شيئًا من غير أن يتعاطى أسباب العلم ووفور البركة مع قلة أكله جدًا ، فيقدم حيث تحجم الأبطال ، ويقف حيث يفر عند شدة الهول صناديد الرجال ، ويثبت على حاله من الدعوى لدى شدائد الأهوال ، حتى لم يجد أعداؤه إليه مطعنًا في حال من الأحوال ، بل شهد له العدو والحبيب بوفور الكمال والإفضال .

كل ذلك نقل إلينا بالتواتر ، فعلمنا ذلك علمًا ضروريًا ، فلا يعاند في ذلك إلا من استحق من اللّٰه تعالى شديد النكال .

وأما نبوة غيره كآدم فمن بعده فقد علم بالكتاب والسنة ، وأثنى عليهم اللّٰه تعالى في كتابه بقوله ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء : ١٦٥] ، وغير ذلك ، فيجب لهم ما يجب له عليه الصلاة والسلام والبعض قد عينه الكتاب ، والبعض لم يعينه[١] .

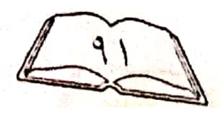
وقد ثبت بالكتاب والسنة أنه آخر النبيين[٢] ، فلا تُبتدأ نبوة بعده عليه الصلاة والسلام .

وقد ضرب الأشياخ لصدق مدعي الرسالة بدليل المعجزة مثالًا يتضح به

---

(١) الذين عيَّنهم القرآن خمسة وعشرون . منهم ثمانية عشر في قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ الآيات من سورة الأنعام ، والباقي : محمد ، وآدم ، وصالح ، وهود ، وشعيب ، وإدريس ، وذو الكفل ، والذين لم يعنيهم القرآن هم من عدا هؤلاء . قال تعالى : ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ .

(٢) قال تعالى : ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، وقال ﷺ : « وختم بي النبيون » .



دلالتها على صدقه ، ويعلم ذلك بالضرورة . فقالوا : مثال ذلك ما إذا قام رجل في مجلس ملك بحضور جماعة ، وادعى أنه رسول هذا الملك إليهم فطلبوا منه الحجة على ذلك ، فقال : دليلي على صدق قولي أن يغير الملك عادته بأن يقوم عن سريره ويقعد ثلاث مرات ، والملك يسمع ذلك ، ففعل الملك ذلك ، فلا شك أنه يحصل للجماعة العلم الضروري أنه صادق في دعواه ، ومُنَزَّل منزلة قوله : صدق هذا الرجل فيما ادعاه ، ولا فرق في حصول العلم بذلك لمن شاهده ، أو لم يشاهده ، ولكن نقل إليه خبر هذا الفعل بالتواتر .

الصفة الثالثة :

(**والتبليغ**) أي إيصال الأحكام التي أمروا بتبليغها إلى المرسل إليهم إذ هم مأمورون بالتبليغ قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة : ٦٧] ، والأمر للوجوب وقد تقدم أنهم لا يخونون اللَّه تعالى بفعل منهي عنه ، وما ثبت له عليه الصلاة والسلام يثبت لهم وقال تعالى : ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء : ١٦٥] ، ولا يتم التبشير والإنذار إلا بالتبليغ .

الصفة الرابعة :

(**والفطانة**) بفتح الفاء وهي حدة العقل وذكاؤه ، فلا يجوز أن يكون الرسول ولا النبي مغفلًا ، أو أبله ، أو بليدًا ، لأنهم أرسلوا لإقامة الحجج ، وإبطال شُبَه المخالفين ، ولا يكون ذلك من مُغَفَّل ولا أبله ، ولأنا مأمورون بالاقتداء بهم في الأقوال والأفعال ، والمقتدى به لا يكون بليدًا ، ولأن البلادة صفة نقص تُخِلُّ بمنصبهم الشريف .

ومن ذلك يُعلم أنهم لا يكونون إلا من أشرف الناس رجالًا ونساء ، إذ شأن



دنيء الأصول أن تأنف النفس من اتباعه، والاقتداء به، ولذا كانوا منزهين عن كل ما يخل بالمروءة، وكل ما يؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية عليهم صلوات الله وسلامه.

المستحيل على الرسل:

(**ويستحيل**) في حقهم عليهم السلام (**ضدها**) أي ضد هذه الواجبات الأربعة المتقدمة (**عليهم**).

فيمتنع في حقهم الخيانة بفعل منهي عنه، إذ أفعالهم لا تخلو عن الواجب والمندوب والمباح وهذا بالنظر إلى الفعل في حد ذاته، وأما لو نظر إليه بحسب عوارضه، فالحق أن أفعالهم دائرة بين الواجب والمندوب لا غير، وأما المباح فلا يقع منهم كما يقع من غيرهم، بل لا يقع منهم إلا مصاحبًا لنية تصرفه إلى كونه مطلوبًا، وأقله قصد التشريع للغير، وذلك من باب التعليم، وناهيك به مرتبة.

وإذا كان بعض تابعيهم كالأولياء لا تخلو أفعاله من الواجب والمندوب بصرف المباحات بالنية الصالحة إلى المندوبات، كأن يصرف الأكل للتقوّى على العبادة وإقامة البنية، والجماع لصون النفس عن الحرام وللنسل المطلوب، وغير ذلك، فكيف بهؤلاء السادة الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام.

وكذا يستحيل عليهم الكذب لما مر ولقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧].

وكذا يستحيل عليهم كتمان شيء مما أمروا بتبليغه، إذ كيف يقع منهم الكتمان وهو ملعون صاحبه بنص قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ



ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٩].

وأما ما لم يؤمروا بتبليغه فبعضه يخيرون في تبليغه، وهو ما لم يؤمروا بعدم تبليغه، وبعضه يجب كتمانه، وهو ما أمروا بكتمانه، كبعض الأسرار الإلهية، وبعض هذا القسم أذن لهم في إيصاله لبعض الأفراد، كالخلفاء الأربعة وكأبي هريرة رضي اللَّه عنهم(١)، وهذه الأسرار هي المتداولة بين الأولياء.

وكذا يستحيل عليهم البلاهة والغفلة والبلادة.

الجائز في حق الرسل:

(**وجائز**) عليهم كل عرض بشري، لا يؤدي إلى نقص في مراتبهم العليَّة، بأن لا يكون منهيًا عنه، ولا مباحًا مزريًا، ولا مرضًا مزمنًا، أو تعافه النفس كالجذام والبرص، سواء كان مما لا يستغنى عنه عادة (**كالأكل**) والشرب والنوم، أم كان مما يستغنى عنه كأكل الفواكه والنكاح، أو كان من الأمراض غير المزمنة، وغير المنفِّرة، فكل ذلك جائز (**في حقهم**) عليهم الصلاة والسلام ولا تخلو هذه الأعراض النازلة بهم من فوائد:

كتعظيم أجورهم، وعلو مراتبهم عند اللَّه تعالى، واللَّه تعالى وإن كان قادرًا على أن يفعل بهم ذلك من غير ابتلاء ومشقة تحصل لهم إلا أن حكمته تعالى اقتضت ترتب ذلك على الابتلاء، لا يسئل عما يفعل.

---

(١) جعل بعض العلماء الأقسام ثلاثة:

(أ) ما أمروا بتبليغه: وهذا لم يكتموا منه حرفًا.

(ب) ما أمروا بكتمانه: وهذا لم يبلغوا منه حرفًا.

(جـ) ما خيِّروا فيه: وهذا بلغوا بعضه، وكتموا بعضه، وما بلغوه منه هو الأسرار الإلهية السارية في الأولياء.



وكالتشريع كما عرفنا أحكام السّهو في الصلاة من سهوه ﷺ[1]، وكيف تؤدي الصلاة في حال المرض والخوف من فعله عليه الصلاة والسلام حال ما ذكر ودلالة الفعل أقوى من دلالة القول.

وكالتسلي بأحوالهم إذا نزل بنا ما نزل بهم.

وكالتنبيه على حقارة الدنيا، وخسة قدرها عند اللَّه تعالى، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «لو كانت الدنيا تزن عند اللَّه جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء»[2].

فإذا نظر العاقل في أحوالهم عليهم الصلاة والسلام من أمراض وأسقام، وقلة مال، وأذيَّة الخلق لهم، علم أنها لا قدر لها عند اللَّه تعالى، فأعرض عنها بقلبه بالكلية وعلَّق قلبه بربه في البكرة والعشيَّة. إن كان ذا همَّة عليَّة، حتى يرى أثر موته عاقبة هذه العيشة المرضيَّة.

ودخل في قولنا المباح المُزري: سؤال الصدقة، بل قبولها. فلا يجوز عليهم والأكل في السوق ودخل في المرض المزمن: العمى والجنون، ولو قلَّ، لأن شأنه أن يزمن؛ ولأنه نقص، ولم يعم نبي قط.

وما قيل إن شعيبًا عليه السلام كان ضريرًا. لا أصل له، ويعقوب إنما حصلت له غشاوة وزالت.

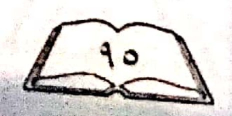
وأما السهو فيجوز في الأفعال كالسلام من ركعتين دون الأقوال.

وأما نسيان الأحكام فلا يجوز عليهم قبل التبليغ، ويجوز بعده لحفظه بعده، ولوجوب ضبطه على المبلغ ليعمل به، وليبلغه، ويجوز نسيان المنسوخ

---

(١) روى الحديث الإمام مسلم في ك المساجد، ب السهو في الصلاة ١/ ٤٧٣.

(٢) رواه الترمذي والطبراني وأبو نعيم عن سهل بن سعد. كشف الخفا ٢/ ٢٠٧.



مطلقًا قبل التبليغ وبعده .

واعلم أن ما جاز عليهم من الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العليَّة فإنما هو بحسب ظواهرهم فقط ، وأما بواطنهم ، فهي معمورة بالأسرار الإلهية ، متعلقة بحبِّ خالق البريَّة ، فلا يحصل منهم ضجر ، ولا شكوى ، ولا تأوه منها ، بل لا يزيدهم منها إلا قربًا وحبًا ، بل هذه الحالة تكون في كثير من أمتهم ، فكيف بهم عليهم الصلاة والسلام ؟ .

حكم إرسال الرسل :

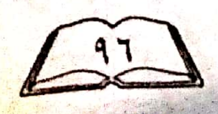
ولما أوجبت المعتزلة إرسال الرسل بناء على قاعدتهم من وجوب الصلاح عليه تعالى والأصلح في حق عبيده أن يُرسل إليهم الرسل ، لينبهوهم على ما ينجيهم من المهالك ، وما يوبقهم فيها .

وأحاله السُّمنيَّة والبراهمة[1] نظرًا إلى أنه عبث لكون العقل كافيًا عنه أشار إلى الرد عليهم بقوله (**إرسالهم تفضل**) وإحسان من اللَّه تعالى (**ورحمة**) منه (**للعالمين**) وليس بواجب عليه لما علمت أنه الفاعل المختار الذي لا حرج عليه ، ولا يُسأل عما يفعل ، ولا بمستحيل لأن العقل إذا خلا ونفسه قد يغفل عن أكثر الأحوال المناسبة له في معاشه ، فكيف بدقائق الشرع والسمعيات التي لا تتلقى إلا من الصادق (**جلَّ مُولى**) بضم الميم وكسر اللام أي معطي (**النعمة**) التي من أجلها إرسال الرسل إلينا ، فله الحمد على ذلك ، وعلى كل حال .

۞ ۞ ۞

---

(١) السمنية والبراهمة من فرق الهنود .



السمعيات

• النَّظم :

٥٤- ويلزمُ الإيمانُ بالحسابِ	والحشرِ ، والعقابِ ، والثوابِ
٥٥- والنَّشْرِ ، والصراطِ ، والميزانِ	والحوضِ ، والنيرانِ ، والجنانِ
٥٦- والجنِّ والأملاكِ ثم الأنبيا	والحورِ والولدان ثم الأوليا
٥٧- وبكلِّ ما جاء عن البشيرِ	من كلِّ حكمٍ صار كالضروري

• الشـــرح :

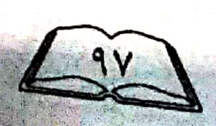
ولما كانت مباحث هذا الفن ثلاثة : إلهيات ، ونبوات ، وسمعيات ، وقد تقدم الكلام على بيان الأولين شرع في الثالث وهو السمعيات فقال :

الإيمان بالحساب :

(ويلزم) أي يجب على المكلفين **(الإيمان)** أي التصديق **(بالحساب)** وهو لغة : العدُّ ، واصطلاحًا : توقيف اللّه عباده في المحشر على أعمالهم فعلًا ، أو قولًا ، أو اعتقادًا تفصيلًا بأن يكلمهم اللّه تعالى بكلام قديم ، ليس بحرف ولا صوت ، بأن يزيل عنهم الحجاب حتى يسمعوه ، أو بصوت يخلقه اللّه تعالى يدلُّ عليه ، وقد يكون من الملائكة فقط ، وقد يكون منه تعالى ، ومن الملائكة جميعًا .

وكيفيته مختلفة : فمنه اليسير ، ومنه العسير ، والسر والجهر ، والفضل والعدل . على حسب الأعمال ، فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء .

ويكون للمؤمنين والكافرين إنسًا وجنًا بعد أخذهم الكتب لقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ



أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧- ٩] الآية، وأيسر الحساب محاسبة اللّٰه فقط حتى لا يعلم بذلك إنس ولا جن ولا ملك يقول له تعالى: هذه سيئاتك قد غفرتها لك، وهذه حسناتك قد ضاعفتها لك.

ولا يكون للمعصومين، ويستثنى ممن يحاسب سبعون ألفا أفضلهم أبو بكر الصديق رضي اللّٰه عنه، فإنهم يدخلون الجنة بغير حساب كما ورد بذلك الحديث[١].

وهذه الأمة وإن كانت آخر الأمم إلا أنها تُقَدَّم في الآخرة في الحساب وغيره.

الإيمان بالحشر:

(و) يجب الإيمان بـ (**الحشر**) أي حشر الأجساد وهو: سوقها إلى الموقف المسمى بالمحشر بعد بعثهم من قبورهم المسمى بالنشر[٢] كما سيأتي.

ومراتب الناس في الحشر متفاوتة: فمنهم الراكب، ومنهم الماشي على رجليه، ومنهم من يمشي على وجهه.

ويكون في صور مختلفة على حسب الأعمال فمنهم من هو على صورة القردة، وهم الزناة، ومنهم على صور الخنازير، وهم آكلوا السحت والمكس،

---

(١) رواه مسلم في الإيمان ب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ١/ ١٩٧.

(٢) أنواع الحشر أربعة: اثنان في الدنيا: أحدهما: إجلاؤه ﷺ اليهود من المدينة إلى الشام. وثانيهما: سوق النار التي تخرج من عدن الناس قرب قيام الساعة إلى المحشر. واثنان في الآخرة: أحدهما: جمعهم إلى الموقف بعد إحيائهم. والثاني: صرفهم من الموقف إلى الجنة أو النار.



ومنهم الأعمى، وهو الجائز في الحكم، ومنهم الأصم الأبكم، وهو الذي يُعجب بعمله، ومنهم من يمضغ لسانه مُدْلعًا على صدره يسيل القيح من فمه، وهم الوعاظ الذين تخالف أفعالهم أقوالهم، ومنهم المقطوع الأيدي والأرجل: وهم الذين يؤذون الجيران، ومنهم من يصلب على جذوع من النار، وهم السُّعاة بالناس إلى السُّلطان، ومنهم من هو أشدُّ نتنًا من الجِيَف، وهم الذين يقبلون على الشهوات واللذات، ويمنعون حق اللَّه من أموالهم، ومنهم من يلبس جبة سابغة من قطران لاصقة بجلده وهم أهل الكبر والعجب والخيلاء، كذا رأيته بخط شيخنا ناقلًا له عن الثعلبي[1].

الإيمان بالجزاء:

(**والعقاب**) على الذنوب والكفر في القبر، وفي المحشر، وبعده، بأنواع مختلفة على حسب الأعمال، فمنهم من يعاقب بالحيات أو بالعقارب، ومنهم من يعاقب بالضرب، ومنهم من يعاقب بغير ذلك، ثم مآل الكفار إلى النار، ويخلدون فيها، وأما أهل المعاصي فقد يغفر لهم، فلا يدخلون النار، وبعضهم يدخلها، ولكن لا يخلد فيها، بل لا بد من خروجه منها بشفاعة نبينا ﷺ أو غيره على ما سيأتي إن شاء اللَّه تعالى.

وأما بعد البعث فمحله الروح والجسد قطعًا وكذا قبله في البرزخ[2] على

---

(١) هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي. مفسرٌ مؤرخ، من كتبه: «الكشف والبيان في تفسير القرآن»، ت٤٢٧هـ. الأعلام ١/ ٢١٢، ويقصد المؤلف أنه بخط الشيخ العدوي رحمه اللَّه تعالى.

(٢) البرزخ: في اللغة: الحاجز بين الشيئين. وفي العرف: الحاجز بين الدنيا والآخرة. وزمانه: زمن الموت إلى يوم القيامة. ومكانه: من القبر إلى الجنة لأرواح الشهداء، أو إلى النار لأرواح الأشقياء.

المشهور بأن يعيد اللّٰه الروح إليه ، أو إلى جزء منه إن قلنا إن المعذَّب بعض الجسد ولا يمنع من ذلك كون الميت قد تفرّقت أجزاؤه ، أو أكلته السباع ، أو الحيتان ، فإن القادر لا يعجزه شيء وقيل إنه يتعلق بالأرواح فقط .

(**والثواب**) أي الجزاء على الأعمال بالجنة في الآخرة وغيرها من أنواع النعيم[1] ، وكذا في البرزخ وبعده ، وأنواعه مختلفة أيضًا على حسب الأعمال والأفضال من الواحد المتعال .

الإيمان بالبعث :

(**والنشر**) وهو البعث ، والمراد به : إحياء اللّٰه الموتى من قبورهم بعد جمع أجزائهم الأصلية ، بأن يجمعها اللّٰه تعالى بعد تفرقها .

وقيل : بعد عدمها بالكلية ما عدا عجب الذنب ، فإنه لا يُعْدَم ، وقيل : هو الإخراج من القبور بعد الإحياء برد الروح فيه .

الإيمان بالصراط :

(**والصراط**) وهو لغة : الطريق الواضح .

وشرعًا : جسر ممدود على متن جهنم بين الموقف والجنة . لأن جهنم بينهما ، ترده المؤمنون والكفار للمرور عليه إلى الجنة ، أدق من الشعرة ، وأحد من السيف .

وأنكر القرافي[2] تبعًا لشيخه العز[3] كونه أدق من الشعرة ، وأحد من

---

(١) كالنظر إلى وجهه تعالى .

(٢) هو شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي ، من علماء المالكية ، فقيه أصولي ، من كتبه : «الذخيرة» ، ت٦٨٤هـ . الأعلام ١/ ٩٥.

(٣) هو عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء ، فقيه شافعي ، بلغ رتبة الاجتهاد ، له كتب كثيرة ، ت٦٦٠هـ . الأعلام ٤/ ٢١.



السيف، بل هو متسع، لما ورد ما يدل على ذلك.

والأظهر أنه مختلف في الضيق والاتساع باختلاف الأعمال وقيل: إن الكفار لا يمرون عليه، بل يؤمر بهم إلى النار من أول الأمر، وقيل: بعضهم يمر وبعضهم لا.

والمارون عليه مختلفون، فمنهم سالم بعمله، ناج من الوقوع في نار جهنم، وهم على أقسام: فمنهم من يجوزه كلمحة البصر، ومنهم من يجوزه كالبرق الخاطف، ومنهم كالريح العاصف، ومنهم كالطير، ومنهم كالجواد السابق، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي، ومنهم من يمر عليه حبوًا على قدر تفاوتهم في الأعمال الصالحة، والإعراض عن المعاصي. فكل من كان أسرع إعراضًا عنها إذا مرت على خاطره، كان أسرع مرورًا، ومنهم من تخدشه كلاليبه فيسقط، ولكن يتعلق بها فيعتدل ويمر ويجاوزه بعد أعوام.

ومنهم غير السالم بل يسقط في نار جنهم، وهم متفاوتون أيضًا بقدر الجرائم، ثم منهم من يخلد في النار، كالكفار، ومنهم من يخرج منها بعد مدة على حسب ما شاء اللّٰه تعالى، وهم عصاة المؤمنين بشفاعة النبي ﷺ أو غيره من الأخبار.

وهو من الممكنات التي أخبر بها الصادق، وكل ما كان كذلك فيجب الإيمان به قال تعالى: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ [يس: ٦٦]، وفي الحديث: «يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجوزه»[١].

وغير ذلك. قال ابن الفاكهاني: وهو موجود والأخبار عنه صحيحة أ هـ. فذهب أهل السنة إلى إبقائها على ظاهرها مع تفويض علم حقيقته إلى اللّٰه

---

(١) رواه مسلم في الإيمان ب معرفة طريق الرؤية ١/ ١٦٣.



تعالى خلافًا للمعتزلة ، وقال بعضهم[1] : إنه سيوجد عند الحاجة إليه .

الإيمان بالميزان :

(**والميزان**) وهو قبل الصراط توزن به أعمال العباد ، ودل عليه الكتاب في آيات متعددة ، والسنة حتى بلغت أحاديثه مبلغ التواتر . والحمل على الحقيقة ممكن فيجب الإيمان به وإن كنا لا نعرف حقيقة جوهره . والتأويل بتمام العدل كما ذهب إليه المعتزلة عناد ومكابرة .

والصحيح أنه ميزان واحد لجميع الأمم ، ولجميع الأعمال ، والجمع في قوله تعالى ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء : ٤٧] للتعظيم ، وإن خفة الموزون وثقله على صورته في الدنيا وإن الكفار توزن أعمالهم كالمؤمنين بدليل قوله تعالى ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ الآية [المؤمنون : ١٠٣] . ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة : ٨- ٩] ، وقوله تعالى : ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف : ١٠٥] أي نافعًا .

ولا يكون للأنبياء ، ولا للملائكة ، ولا لمن يدخل الجنة بغير حساب ؛ لأنه فرع عن الحساب ، ولا حساب على مَنْ ذُكِر .

وهو على صورة ميزان الدنيا ، له كفتان ولسان .

وتوزع الأعمال بأن تصور الأعمال الصالحة في صورة حسنة نورانية ، فتوضع في كفة النور ، وهي المعدة للحسنات ، وهي عن يمين العرش مقابلة للجنة ، وتصور الأعمال السيئة بصورة قبيحة ظلمانية ، فتوضع في كفة الظلمة المعدة للسيئات ، وهي عن شمال العرش تجاه النار .

---

(١) أي بعض المعتزلة : فهم قد افترقوا فرقتين : إحداهما تنكره أصلاً ، وتؤول ما ورد من نصوص ، والأخرى تنكر وجوده الآن ، وتقول : يوجد عند الحاجة إليه .



وقيل : توزن الصحف المكتوبة فيها الأعمال بناء على أن الحسنات متميزة عن السيئات بكتاب ويشهد له حديث البطاقة[1] .

وهناك صنج مثاقيل الذر يعلم بها كمية التفاوت تحقيقًا لتمام العدل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٧ - ٨] .

الإيمان بالحوض :

(**والحوض**) أي حوض رسول اللَّه ﷺ . ورد فيه أحاديث كثيرة بلغت مبلغ التواتر . وفي الصحيحين : « حوضي مسيرة شهر ، وزواياه سواء ، ماؤه أبض من اللبن ، وريحه طيب من المسك ، وكيزانه أكثر من نجوم السماء ، من شرب منه لا يظمأ أبدًا »[2] .

والصحيح أن لكل نبي حوضًا ، فليس من خصوصيات نبينا ﷺ ، وأنه يكون قبل الميزان .

وهل هو حوض واحد أو حوضان ؟ الثاني بعد الصراط قولان وقيل الذي بعد الصراط هو الكوثر وهو نهر في الجنة لا حوض وإنما الحوض قبل الصراط ، وهو جسم مخصوص يصب فيه ميزابان من ماء الكوثر : ترده أمته عليه الصلاة والسلام من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا ، ويكون الشرب في الجنة إنما هو على سبيل التلذذ ، لا العطش .

ويطرد عنه مَن بدّل وغير . إما بالإرتداد ، وإما أن يحدث في الدين ما ليس

---

(١) حديث البطاقة رواه ابن ماجه في سننه ك الزهد ب ذكر الحوض ٢/ ١٤٣٧.

(٢) رواه البخاري في الرقاق ب في الحوض . الفتح ١١/ ٤٧٢، ومسلم في الفضائل ب إثبات حوض نبينا ٤/ ١٧٩٣.



منه . كأهل البدع على اختلاف أنواعهم ، وكأهل الكبائر المغلئين بها ، وكالظلمة الجائرين في أحكامهم ، لأن المرتد مخلد في النار .

وخالف المعتزلة في ذلك وهم أحق للطرد عنه من غيرهم .

الإيمان بالنار والجنة :

(**والنيران**) بكسر النون جمع نار ، وهي جسم لطيف محرق يميل إلى جهة العلو . والمراد بها دار العقاب الذي أشده النار بجميع طبقاتها السبع : أعلاها جهنم ، وهي لعصاة المؤمنين ، ثم تخرب بعد خروجهم منها ، فلظي ، فالحطمة ، فالسعير ، فسقر ، فالجحيم ، فالهاوية . وباب كل من داخل الأخرى على الاستواء وحرها هواء محرق لا جمر لها سوى بني آدم ، والجن ، والأحجار ، المتخذة آلهة من دون الله ، نعوذ بالله منها .

(**والجنان**) جمع جنة ، وهي لغة : البستان ، والمراد منها : دار الثواب . وهي سبع : أعلاها وأفضلها الفردوس ، وفوقها عرش الرحمن ، ومنها تتفجر أنهار الجنة ، فجنة المأوى ، فجنة الخلد ، فجنة النعيم ، فجنة عدن ، فدار السلام ، فدار الجلال ، هذا ما ذهب إليه ابن عباس وجماعة .

وذهب الجمهور إلى أنها أربع بدليل ما في سورة الرحمن[1] .

وقيل : الجنة واحدة ، وما تقدم أسماء لمسمى واحد إذ كل اسم صالح لها .

والجنة والنار موجودتان الآن والجنة هي التي أهبط منها آدم عليه السلام خلافًا للمعتزلة الذاهبين إلى أنهما سيوجدان في الآخرة وأن آدم أهبط من بستان على ربوة من الأرض .

---

(١) وهو قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (٤٦) ، وقوله : ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ (٦٢) .



الإيمان بالجن والملائكة :

(و) يجب الإيمان بوجود (**الجن**) وهم أجسام لطيفة نارية لهم القدرة على التشكلات .

(و) بوجود (**الأملاك**) وعصمتهم أيضًا قال تعالى : ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم : ٦] جمع ملك ، وهو جسم لطيف روحاني نوراني له القدرة على التشكلات الجميلة(١) .

ويجب الإيمان بهم إجمالًا . فيمن علم منهم إجمالًا . وتفصيلا فيمن علم منهم تفصيلًا بالشخص كجبريل ، وإسرافيل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وهم رؤساء الملائكة عليهم الصلاة والسلام أجمعين ، ومنكر ونكير ، ورضوان خازن الجنان ، ومالك خازن النيران ، .

أو بالنوع كحملة العرش ، وأعوان السيد عزرائيل ، والحفظة وهم ملائكة موكلون بحفظ البشر ، ولو صغيرًا وكافرًا من الجن مثلًا قال تعالى : ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد : ١١] .

والكتبة وهم ملائكة يكتبون على المكلف جميع ما صدر منه من قول ولو نفسيًا وفعل ، واعتقاد . لا يفارقونه إلا في حالة الجماع ، والغسل ، والخلاء ، والمشهور أنهما ملكان يسمى أحدهما الرقيب ، والثاني العتيد . كما في سورة « ق » في قوله تعالى : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [١٦] . ولكل يوم وليلة ملكان ، يتعاقبون عند صلاة العصر ، وصلاة الصبح ، وقيل : بل هما

---

(١) المراد التي ليست خسيسة . كالكلب والخنزير ، فتشمل الفظيعة الهائلة ، كمالك خازن النار ، ومنكر ونكير ، وملك الموت : في إتيانهم الكفار ، ولا تحكم عليهم الصورة . كما تحكم الجن عندما يتشكل الجني بصورة معينة .



ملكان فقط لا يتغيران ما دام حيًا، فإذا مات جلسا على قبره يستغفران له. أي إن كان مؤمنًا، ومحلهما من الإنسان عاتقاه، وقيل ذقنه، وقيل شفتاه، وقيل عنقه، وقيل الناجذان[1]، وقيل إن الكتبة هم الحفظة.

وبالجملة الواجب اعتقاده أن على الإنسان حفظه وكتبة على سبيل الإجمال.

الإيمان بجميع الأنبياء:

(**ثم**) يجب الإيمان بوجود (**الأنبياء**) عليهم الصلاة والسلام تفصيلًا فيما علم منهم تفصيلًا، وهم المذكورون في القرآن كمحمد عليه الصلاة والسلام، وآدم، ونوح، وإدريس، وهود، وصالح، واليسع، وذي الكفل، وإلياس، ويونس وهو ذو النون أي الحوت، وأيوب، وإبراهيم، وإسمعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، ولوط، وداود، وسليمان، وشعيب، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى وإجمالًا فيما علم منهم إجمالًا.

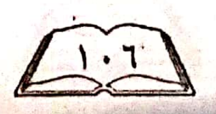
والأولى ترك حصرهم في عدد معين لقوله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، ولا يؤمن في ذكر العدد أن يدخل فيهم من ليس منهم لجواز أن يذكر أكثر من الواقع، أو يخرج منهم من هو منهم، إن كان العدد أقل.

وما روى أن النبي ﷺ سئل عن عددهم فقال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا[2]. وفي رواية مائتا ألف وأربعة وعشرون ألفًا فخبر آحاد لا يفيد القطع، ولا عبرة بالظن في باب الاعتقادات.

---

(١) الناجذان: مؤخر أضراسه اليمين واليسار.

(٢) جزء من حديث أبي ذر. رواه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٢٦٦.



ويجب اعتقاد أن محمدًا ﷺ وعليهم أجمعين أفضلهم، وأنه آخرهم، ويليه في الفضل أولو العزم من الرسل[1]، فبقية الرسل الأنبياء، فرؤساء الملائكة، فبقية الملائكة من غير تعيين، إذ لا تعلم الحقيقة، فأصحاب النبي ﷺ وأفضلهم أبو بكر، فعمر، فعثمان، فعلي، فبقية العشرة[2]، فبقية البدريين، فأهل بيعة الرضوان[3]، فبقية الصحابة، فالتابعون، فتابع التابعين.

ويجب الإمساك عما وقع بين الصحابة من النزاع[4].

الإيمان بالحور والولدان:

(و) يجب الإيمان بوجود (**الحور**) جمع حوراء، والحَوَرُ شدة بياض العين مع شدة سوادها، وهن نساء الجنة، ووصفن بالعين لاتساع أعينهن.

(**والولدان**) أي الغلمان، وهم على صورة غلمان الدنيا، وهم خدمة أهل الجنة وقيل إنهم أولاد الكفار الذين يموتون قبل البلوغ، فإنه ورد أنهم خدمة أهل الجنة.

---

(١) وهم خمسة: هو أحدهم، والباقون: إبراهيم، ونوح، وموسى، وعيسى، وسموا بذلك لمزيد صبرهم، وكثرة عملهم.

(٢) وهم: سعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد.

(٣) سقط أهل أحد الذين لم يحضروا بدرًا، وهم أفضل من أهل بيعة الرضوان الذين لم يحضروا بدرًا ولا أحد.

(٤) قال الشيخ الصاوي: «لأن التفتيش عما جرى بينهم ليس من العقائد الدينية، ولا مما ينتفع به في الدين، بل ربما ضرَّ في اليقين، فلا يباح الخوض فيه إلا للتعليم، أو الرد على المتعصبين، ومع ذلك يجب تأويله وصرفه إلى محمل حسن، فإنهم مجتهدون، والمجتهد مأجور أخطأ أو أصاب».



الإيمان بالأولياء :

(ثم) يجب الإيمان بـ (**الأولياء**) جمع ولي . وهو : القائم بحقوق اللّه تعالى ، وحقوق العباد حسب الإمكان ، وهو معنى قول من قال : هو العارف باللّه تعالى وصفاته حسب الإمكان ، المواظب على الطاعات ، المجتنب للمخالفات ، المعرض عن الانهماك في اللذات ، والشهوات .

ويجب اعتقاد كراماتهم ، والكرامة : أمر خارق للعادة ، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح غير مقرون بدعوى النبوة .

كل ذلك ورد به الكتاب ، والسنة ، وأجمعت عليه الأمة ، قبل ظهور المخالفين ، وكل ما كان كذلك فالإيمان به واجب .

(و) كذا يجب الإيمان (**بكل ما جاء**) أي روى ونقل (**عن**) أي عن النبي (**البشير**) أي المبشر لمن أوفى بالعهود بأنه محمود العاقبة ﷺ (**من كل حكم**) بيان لكل ما جاء (**صار**) في الاشتهار بين الخاصة والعامة (**كـ**) الأمر (**الضروري**) الذي لا يخفى على أحد ، وهذا من عطف العام على الخاص لشموله ما تقدم من الحساب ، وما عطف عليه ، وغيره ، كوجوب شهادة أن لا إله إلا اللّه ، وأن محمدًا رسول اللّه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت اللّه الحرام ، وحرمة الزنا . والخمر ، والربا ، وحل النكاح والبيع ونحو ذلك .

الإيمان بالإسراء والمعراج :

وكالمعراج بجسده الشريف ﷺ **يقظة** ، وهو العروج إلى السماء مع جبريل عليه السلام بلا بُرَاق بعد الإسراء ، ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد



الأقصى راكبًا للبراق[1]، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافرة عند منتهى طرفه، والمراد بالمعراج ما يعم الإسراء وقصته المشهورة.

الإيمان بالبرزخ:

وكسؤال الملكين منكر ونكير[2]، وهما ملكان أسودان أزرقان أي أعينهما، يأتيان للميت مؤمنًا كان أو كافرًا أو منافقًا بعد تمام الدفن في القبر الذي يستقر فيه دائمًا، وعند انصراف الناس، فيقعدانه ويعيد اللَّه فيه الروح بتمامه، وقيل: في نصفه، ويسألانه: من ربك؟ وما دينك؟ وما تقول في الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول المؤمن: ربي اللَّه، وديني الإسلام، والرجل المبعوث فينا رسول اللَّه ﷺ، فيقولان له: انظر مقعدك من النار قد أبدلك اللَّه به مقعدًا في الجنة، فيراهما جميعًا، وأما المنافق أو الكافر فيقول: لا أدري، فيقولان له: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطراق من حديد في يد أحدهما، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين، ويترفقان بالمؤمن، وينهران الكافر والمنافق.

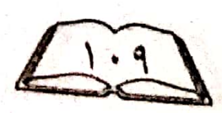
ويسألان كل أحد بلسانه على الصحيح، ولو تمزقت أعضاؤه، أو أكلته السِّباع، أو حُرِقَ وسُحِقَ وذُرِّيَ في الهواء، إذ لا يبعد أن يخلق اللَّه تعالى الحياة فيه وأحوال المسئولين مختلفة فمنهم من يسأله الملكان ومنهم من يسأله أحدهما.

قال القرطبي: اختلفت الأحاديث في كيفية السؤال والجواب وذلك

---

(١) الإسراء ثبت بالكتاب، والسنة، وإجماع الأمة، فمن أنكره، فهو كافر، والمعراج ثبت بالأحاديث المشهورة، فمن أنكره فهو فاسق.

(٢) من أنكر سؤال القبر فهو فاسق. ولا يكفر.



بحسب الأشخاص : فمنهم من يسأل عن بعض اعتقاداته ، ومنهم من يسأل عن كلها ، انتهى .

واختلف في اختصاصه بهذه الأمة .

ولا يُسأل الأنبياء ، ولا الملائكة ، ولا الصديقون والمرابطون ، والشهداء ، وملازم قراءة تبارك كل ليلة ، ومن قرأ في مرض موته « الإخلاص » ثلاثًا ، والمبطون ، ومن مات في أيام الطاعون ، ولو لم يطعن ، والمجنون ، والأبله .

وجزم الجلال السيوطي بعدم سؤال الأطفال ، ويسألان الجن لتكليفهم ، وعموم أدلة السؤال .

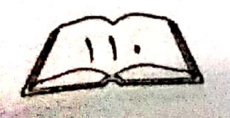
وهذا السؤال هو فتنة القبر .

وكنعيم القبر وعذابه ، والمراد عذاب البرزخ ونعيمه ، ولو لم يقبر ، والتعبير بالقبر جرى على الغالب ، ومحله الروح والجسد جميعًا ، إذ لا مانع أن يخلق اللّه تعالى في جميع الأجزاء أو بعضها نوعًا من الحياة قدر ما يدرك ألم العذاب أو لذة النعيم ، وهذا لا يستلزم أن يتحرك أو يضطرب ، أو يُرَى أثر العذاب عليه حتى إن من أكلته السباع ، أو صلب في الهواء ، يعذب ، وإن لم نطلع على ذلك .

وقيل مختص بالروح . والنعيم يكون للمؤمنين والعذاب للكافرين ولعصاة المؤمنين من هذه الأمة وغيرها .

وهو قسمان : دائم وهو للكفار وبعض العصاة . ومنقطع وهو لبعض العصاة ممن خفَّت جرائمهم . وانقطاعه إما بسبب كصدقة أو دعاء ، أو بلا سبب بل بمجرد العفو .

ومن عذاب القبر ضغطته وهي التقاء حافتيه حتى تختلف أضلاع الميت



ويختلف باختلاف العمل حتى إن الصالح يضمُّه ضمة الأم الشفوقة على ولدها

وكحياة الشهداء ، وهم : مَنْ قتلوا في جهاد الكفار لإعلاء كلمة اللّٰه تعالى حتى إنهم يأكلون ويشربون ، ويتنعَّمون في الجنة ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٩] ، وإن لم تُعلَم كيفية هذه الحياة ، إذ هي غير معقولة لأكثر البشر ، وسُمُّوا شهداء لأن أرواحهم شهدت دار السلام ، أي حضرتها ودخلتها بخلاف غيرهم ، فإنه لا يدخلها إلا يوم القيامة ، أو لأن اللّٰه وملائكته شهدوا له بالموافاة .

الإيمان بصحف الأعمال :

وكأخذ العباد المكلفين من الثقلين في المحشر ما عدا الأنبياء والسبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كُتُبهم التي كتبت فيها الملائكة الحفظة أعمالهم التي صدرت عنهم في الدنيا بالأيمان والشمائل : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق : ٧ - ١٢] .

وحاصل ما قيل في ذلك أن صحائف الأيام والليالي توصل حتى تكون صحيفة واحدة ، وقيل : ينسخ ما في جميعها في صحيفة واحدة ، فإذا مات العبد جعلت في خزانة تحت العرش ، حتى إذا كان يوم القيامة والناس في الموقف بعث اللّٰه تعالى ريحًا ، فتطيرها من تلك الخزانة ، فلا تخطيء صحيفة عنق صاحبها ، ثم تأخذها الملائكة من الأعناق فيعطونها لهم في أيديهم على حسب حالهم من إيمان أو كفر ، فالمؤمن يعطى كتابه بيمينه ، والكافر بشماله ، ويثقب صدره فيدخل يده اليسرى فيه ، ويأخذ كتابه من وراء ظهره .



وأول من يأخذ كتابه بيمينه على الإطلاق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وله شعاع كشعاع الشمس ، وأما أبو بكر فهو رئيس السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وبعد عمر أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي رضي الله عنه .

وأول من يأخذه بشماله أخوه الأسود بن عبد الأسد المخزومي .

ثم إذا أخذ العبد كتابه ، وجد حروفه نيرة أو مظلمة على حسب الأعمال الحسنة أو القبيحة وأول خط فيها : ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤] ، فإذا قرأه ابيض وجهه إن كان مؤمنًا ، وأسودَّ إن كان كافرًا ، وذلك قوله تعالى : ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦] ، ويخلق الله تعالى له علم القراءة وإن لم يكن يقرأ في الدنيا والصحيح أن عصاة المؤمنين يأخذون صحائفهم بأيمانهم ، ويكون علامة على دخولهم الجنة ، ولو بعد دخولهم النار .

الإيمان بالشفاعة :

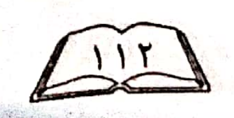
وكالشفاعة وهي أنواع :

الأول : شفاعته ﷺ في فصل القضاء لإراحة الخلق من طول الوقوف ومشقته ، وهي مختصة به ﷺ .

الثاني : شفاعته في إدخال قوم الجنة بغير حساب ، قال النووي : وهي مختصة به .

الثالث : الشفاعة فيمن استحق دخول النار أن لا يدخلها ، قال عياض : وليست مختصة به ، وتردد النووي أي لأنه لم يرد تصريح بذلك .

الرابع : الشفاعة في إخراج قوم من النار ، ويشاركه فيها الأنبياء ،



والملائكة، وصالحو المؤمنين.

الخامس: الشفاعة في زيادة الدرجات. وجوّز النووي اختصاصها به عليه الصلاة والسلام.

السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن استحق الخلود في النار، كما في حق أبي طالب، ففي الصحيح: «أنا أول شافع، وأول مشفع»[1]، وأنه ذُكِرَ عنده عمه أبو طالب، فقال: «لعله تنفعه شفاعتي، فيجعل في ضحضاح من نار»[2].

علامات الساعة:

وكشرائط الساعة الخمسة المتفق عليها أي علاماتها أي العلامات الدالة على قربها.

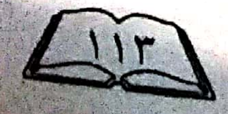
أولها: خروج المسيح الدجال بالحاء المهملة على الصحيح، سُمِّي مسيحًا لمسحه الأرض في أمد يسير، أي مدة أربعين يومًا كما سيأتي في الحديث، وقيل: لأنه ممسوح العين اليسرى، ووصف بالدجال أي الكذاب للفرق بينه وبين المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، وسمي عيسى مسيحًا لمسحه الأرض أي سياحته فيها وقيل لأنه ما مسح على ذي عاهة إلا برىء بإذن اللّه تعالى وقيل: لأنه ممسوح بالبركة.

ثانيها: نزول المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام من السماء، وقتله للدجال ففي الصحيح: «لينزلن ابن مريم حكمًا عدلًا، فليكسرن

---

(١) رواه مسلم في الفضائل ٤/ ١٧٨٢.

(٢) رواه مسلم في الإيمان ١/ ١٩٥.



الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية » الحديث[١] .

وفي مسند أحمد من حديث جابر يخرج الدجال في خفقة من الدين ، وإدبار من العلم ، وله أربعون ليلة يسيحها في الأرض ، اليوم منها كالسنة ، واليوم منها كالشهر ، واليوم منها كالجمعة ، ثم سائر أيامه كأيامكم هذه ، وله حمار يركبه عرض جانب أذنيه أربعون ذراعًا ، فيقول للناس أنا ربكم ، وهو أعور ، وإن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه : كافر : يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب ، يرد كل ماء ومنهل إلا المدينة ومكة ، حرمهما اللّٰه عليه ، وأقامت الملائكة بأبوابهما ومعه جبال من خبز والناس في جهد إلا من اتبعه ، ومعه نهران أنا أعلم بهما منه نهر يقول الجنة ونهر يقول النار ، فمن أُدخِل الذي يسميه الجنة فهو في النار ، ومن أُدخِل الذي يسميه النار فهو في الجنة . قال : وتبعث معه شياطين تلكم[٢] ، ومعه فتنة عظيمة يأمر السماء تمطر فيما يرى الناس ، ويقتل نفسًا ثم يحييها ، فيما يرى الناس ، فيقول للناس : أيها الناس ، فهل يفعل مثل هذا إلا الرب ؟ فيفر الناس إلى جبل الدخان بالشام ، فيأتيهم فيحاصرهم فيشتد حصارهم ، ويجهدهم جهدًا شديدًا ، ثم ينزل عيسى عليه الصلاة والسلام ، فيأتي في السحر فيقول : أيها الناس ، ما يمنعكم أن تخرجوا إلى هذا الكذاب الخبيث ؟ فينطلقون ، فإذا هم بعيسى فتقام الصلاة ، فيقال له : تقدم يا روح اللّٰه ، فيقول : ليتقدم إمامكم فليصل بكم ، فإذا صلوا صلاة الصبح ، خرجوا إليه ، فحين يراه الكذاب فينماع ، أي يذوب كما ينماع الملح في الماء فيقتله ، حتى إن الشجر والحجر ينادي ، يا روح اللّٰه ، هذا يهودي فلا

---

(١) رواه مسلم في الإيمان ١/ ١٣٥.

(٢) شياطين تلكم : اسم موضع.



يترك ممن كان يتبعه أحد إلا قتله وفي الصحيح أحاديث بمعنى ذلك ، انتهى ذكره السيوطي .

ثالثها : خروج يأجوج ومأجوج بالهمز ودونه ، وهما قبيلتان من ولد يافث بن نوح عليه السلام ، فهما من ذرية آدم عليه السلام من غير خلاف .

روى مسلم من حديث النواس بن سمعان أن الله تعالى يوحي إلى عيسى عليه السلام بعد قتله الدجال : أني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم ، فحرِّزْ عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، أي من كل نشز يمشون مسرعين ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبريَّة ، فيشربون ماءها ، وهي بالشام طولها عشرة أميال ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذا أثر ماء ، ويحصرون عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم ، فيرغب نبي الله وأصحابه إلى الله تعالى ، فيرسل الله عليهم النَّغف في رقابهم ، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه في الأرض ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلى ملأته زهمتهم ، فيرغب إلى الله نبي الله وأصحابه ، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت فتحملهم ، فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله تعالى مطرًا ، لا يكن منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ، ثم يقال للأرض انبتي ثمرك الحديث[١] .

وقوله : لا يدان لأحد تثنية يد ومعناه : لا قدرة ولا طاقة ، ومعنى حرزهم إلى الطور : ضمهم إليه ، واجعل لهم حرزًا وقوله : النغف بتحريك الغين

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٤/٢٢٥٣).



المعجمة : الدود الذي يكون في أنوف الإبل والغنم ، وقوله : فرسى كقتلى وزنا ومعنى ، واحدة فريس .

وفي الثعلبي من حديث حذيفة قلت : يا رسول الله ، ما يأجوج ومأجوج قال : أمم كل أمة أربعمائة ألف لا يموت الرجل حتى يرى ألف عين تطوف بين يديه من صلبه ، وهم من ولد آدم فيسيرون إلى خراب الدنيا ، فيكون مقدمتهم بالشام ، وساقتهم بالعراق ، فيمرون بأنهار الدنيا ، فيشربون الفرات ، والدجلة ، وبحيرة طبرية ، حتى يأتون بيت المقدس . فيقولون : قد قتلنا أهل الدنيا فقاتلوا من في السماء ، فيرمون نشابهم إلى السماء ، فيرد الله نشابهم محمرًا دما .

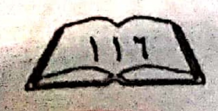
وقد ورد أن الدجال يقتله عيسى بن مريم ، فيخرج من بعده يأجوج ومأجوج ، فيقتلون من اتبع الدجال الذي قتله عيسى ، وينحصر عيسى ومن معه في رؤوس الجبال ، فيسلط الله عليهم داء في أعناقهم ، فيموتون كموت رجل واحد انتهي ذكر جميعه النفراوى(١) ، في شرح الرسالة .

رابعًا : خروج الدابة التى تكلم الناس آخر الزمان المشار إليها بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [النمل : ٨٢](٢) أي وإذا قرب وقوع معنى القول عليهم وهو ما وعدوا به من البعث والعذاب ،

---

(١) هو أحمد بن غانم أو غنيم بن سالم ، شهاب الدين النفراوي الأزهري ، المصري المالكي ، من كتبه : الفواكه الدواني على رسالة أبي يزيد القيرواني . في فقه المالكية ، وشرح الرسالة النورية ، ت١١٢٦هـ- الأعلام ١/ ١٩٢.

(٢) ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره للآية المذكورة هذه الروايات المختلفة في تفاصيل دابة الأرض ، وحكم عليها ، فارجع إليه إن شئت فلا يترتب على معرفة هذه التفاصيل إيمان أو كفر . تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٧٤.



أخرجنا لهم دابة من الأرض ، تكلمهم قيل : تكلمهم ببطلان الأديان إلا دين الإسلام .

وقيل : تقول يا فلان أنت من أهل الجنة ، ويا فلان أنت من أهل النار .

وقيل : تقول إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون .

وروى أنه سئل عليه الصلاة والسلام عن مخرجها فقال : « من أعظم المساجد حرمة على اللّٰه تعالى » . يعني المسجد الحرام .

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أن لها ثلاث خرجات : خرجة بأقصى اليمن ، فيفشو ذكرها في البادية ، ولا يدخل ذكرها مكة ، ثم تمكث زمنًا طويلًا ، وخرجة قريبة من مكة ، فيفشو ذكرها بالبادية ومكة ، وخرجة بينما عيسى ابن مريم عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون ، إذ تهتز الأرض تحتهم ، وينشق الصفا مما يلى المشعر ، فتخرج رأس الدابة من الصفا ، تجرى الفرس ثلاثة أيام ، وما خرج ثلثها . وبعد خروجها يمس رأسها السحاب وتسمي الجساسة .

وفي الحديث أن طولها ستون ، ولها أربعة قوائم ، وزغب وريش وجناحان لا يفوتها هارب ، ولا يدركها طالب ، وعن كعب صورتها صورة حمار قيل : لها رأس ثور وعين خنزير وأذن أيل(١) ، وعنق نعامة ، وصدر أسد ، ولون نمر ، وخاصرة هِرٍ ، وذنب كبش ، وخف بعير .

خامسها : طلوع الشمس من مغربها ، واختلف في ذلك هل هو في يوم واحد ، أو في ثلاثة أيام ، ثم تطلع من المشرق على عادتها إلى يوم القيامة ، وإذا طلعت من المغرب غربت في المشرق ، وعند ذلك يغلق باب التوبة على

---

(١) حيوان في المغرب والسودان . أصغر من البعير .



المؤمن العاصي ، والكافر وقيل هو خاص بالكافر لقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، وهل ذلك خاص بالمكلف أو عام وهل يستمر إلى يوم القيامة ، وهو ظاهر قول البرهان اللقاني في شرح جوهرته .

الحق أنَّ مِن يوم طلوع الشمس من مغربها إلى يوم القيامة لا تقبل توبة ، كما في حديث ابن عمر لكن صحح الأجهوري في حاشيته على الرسالة أن عدم قبولها من المؤمن والكافر خاص بمن شاهد الطلوع وهو مميز ، أما غير المميز ، وهو لصبا أو جنون ثم حصل له التمييز أو ولد بعد ذلك فإنه تقبل منه التوبة .

وقال في شرحه على المختصر عن ابن عباس لا تقبل توبة الكافر إلا إذا كان صغيرًا ثم أسلم بعد ذلك ، فإنها تقبل منه ، وأما المؤمن المذنب ، فتقبل منه توبته .

تعريف الإيمان :

واعلم أن التصديق بما ذكر هو الإيمان الشرعي ، لأن الإيمان لغة : هو مطلق التصديق .

وشرعًا : هو تصديق النبي ﷺ بالقلب في جميع ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة .

أي فيما اشتهر بين أهل الإسلام ، وصار العلم به يشابه العلم الحاصل بالضرورة بحيث يعلمه العامة من غير افتقار إلى نظر واستدلال ، وإن كان في أصله نظريًا ، كوحدة الصانع جل وعلا ، ووجوب الصلاة ، ونحوهما إجمالًا فيما علم إجمالًا ، وتفصيلًا فيما علم كذلك .

والمراد من تصديقه عليه الصلاة والسلام : الإذعان والقبول لما جاء به بحيث يقع عليه اسم التسليم من غير تكبّر وعناد ، لا مجرّد وقوع نسبة الصدق إليه في القلب من غير إذعان وقبول ، حتى يلزم إيمان كثير من الكفار الذين كانوا عالمين بحقيقة نبوته عليه الصلاة والسلام ، وما جاء به ، لأنهم لم يكونوا أذعنوا لذلك ، ولا قبلوه بحيث يطلق عليه اسم التسليم .

وعلى هذا فالإيمان الشرعي هو : حديث النفس التابع للمعرفة . أي الإدراك الجازم بناء على الصحيح من أن إيمان المقلّد صحيح ، فالإذعان ، والقبول ، والتصديق ، والتسليم عبارات عن شيء واحد ، وهو حديث النفس المذكور .

فيكون الإيمان فعلًا من أفعال النفس ، وليس من قبيل العلوم والمعارف ، ويظهر من كلام بعضهم أنه الراجح[1] .

وذهب المحقق التفتازاني وكثير من المحققين إلى أن التصديق الشرعي المعبر عنه بالإيمان والإذعان والتسليم هو نفس الإدراك ، فيكون من قبيل العلوم والمعارف[2] .

والأصح في الإدراك أنه كيفٌ . لا فعل ولا انفعال للنفس ، ويكون التكليف به باعتبار أسبابه من الفكر الموصل إليه[3] .

قال : وهو معنى التصديق ، المقابل للتصور في علم الميزان[4] . حيث

---

(١) هذا قول الأشعري ، والباقلاني ، وأبي إسحاق الإسفراييني ، وجمهور المتكلمين .

(٢) يعترض على كلام التفتازاني بما سبق أن ذكره الشارح من أنه يلزم عليه إيمان كثيرين من الكفار .

(٣) هذا جواب عما يقال : الكيف وصف قائم بالنفس لا تكليف به . وإنما التكليف يكون بالأفعال الاختيارية .

(٤) يظهر من كلام السعد أن الإيجاب مرادف للتصديق المقابل للتصور عند المناطقة . =

يقال: العلم إما تصور وإما تصديق، أي فيكون التصديق عند المناطقة هو الإذعان بحيث يطلق عليه اسم التسليم.

قال: فلو حصل هذا المعنى للكافر[1]، كان إطلاق اسم الكافر عليه من جهة أن عليه شيئًا من أمارات التكذيب والإنكار، كما لو فرضنا أن أحدًا صدق بجميع ما جاء به النبي ﷺ، وأقرَّ به وعمل، ومع ذلك شدَّ الزنار بالاختيار، أو سجد للصنم بالاختيار، نجعله كافرًا لما أن النبي ﷺ جعل ذلك علامة التكذيب والإنكار.

وتحقيق هذا المكان على ما ذكرت يسهل لك الطريق إلى حل كثير من الإشكالات الموردة في مسألة الإيمان. اهـ كلامه.

وعلى ما ذكرنا فالإيمان بسيط[2]، وهو الحق، وعليه فمن صدَّق بقلبه، ولم يُقِرّ بلسانه، لا لعذر منعه، ولا لإباء بل كان بحيث لو طلب منه النطق لأجاب، فهو مؤمن عند اللّٰه تعالى، ناج من الخلود في النار. فالنطق إنما هو شرط كمال فيه كبقية الأعمال من صلاة، وصوم، وزكاة، وحج، لا شرط صحة، ولا جزء من حقيقته، نعم هو شرط لإجراء الأحكام الدنيوية؛ لأن التصديق لخفائه بكونه قلبيًا، لا بد له من علامة ظاهرة تدل عليه.

= والحقيقة أنه أحد نوعي التصديق. لأن الإيجاب تصديق بلغ حد الجزم والإذعان. وأما التصديق المقابل للتصور، فكما يصدق بالجزم، يصدق بالظن أيضًا.

(١) يحاول السعد دفع ما يَرِدُ عليه من الإشكال وهو: إن قلت: إنه الإدراك يلزم عليه أنه يكفي. وإن لم يكن عنده إذعان؟ فأجاب بقوله: فلو حصل هذا المعنى ... إلخ.

(٢) أي من تعريف الإيمان بأنه: حديث النفس التابع للمعرفة، أو تعريفه بأنه المعرفة والإدراك.



وقيل: إنه مركب من التصديق، والنطق بالشهادتين[1]، فالنطق جزء من حقيقته، إلا أن التصديق جزء لا يحتمل السقوط، والإقرار قد يحتمله، كما في المعذور من خرس، أو إكراه. وقيل: بل النطق شرط صحة له، ولا فرق بينه وبين القول بالجزئية، إلا باعتبار أن الجزء داخل الماهية، والشرط خارج عنها.

الإيمان يزيد وينقص:

ثم الراجح أن الإيمان يزيد وينقص[2] بزيادة الأعمال ونقصها، للقطع بأن إيمان الفساق لا يساوي إيمان الصديقين، والأنبياء، والمرسلين، ولقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]. وغير ذلك من الآيات، ولقوله ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما حيث سأله الإيمان يزيد وينقص[3]: نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار.

وبالجملة فزيادة الأعمال الباطنية والظاهرية توجب زيادة إشراقه وضيائه في القلب، وقلتها توجب ضعفه، وظاهر أن التصديق قد يقوى بقوة الأسباب، ولذا يقال ليس الخبر كالعيان.

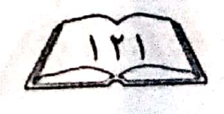
وقيل: لا يزيد ولا ينقص، لأن التصديق البالغ حد الجزم لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان، حتى أن من حصل له حقيقة التصديق، فسواء أتى

---

(١) هذا مذهب الإمام أبي حنيفة، رحمه الله تعالى.

(٢) حديث: «الإيمان يزيد وينقص». روى موقوفًا على أبي هريرة وابن عباس، وهو ضعيف. سنن ابن ماجه، ب الإيمان ١/ ٢٨.

(٣) أي من تعريف الإيمان بأنه: حديث النفس التابع للمعرفة. أو تعريفه بأنه المعرفة والإدراك.



بالطاعات ، أو ارتكب المخالفات ، فتصديقه باق على حاله من غير تغير فيه أصلًا .

وقيل : الخلف لفظي ؛ لأن ما يدل على أن الإيمان يزيد وينقص محمول على الإيمان الكامل المركب من تصديق وعمل ، فالزيادة والنقصان مصروفان إلى ما به الكمال من الأعمال ، وما يدل على عدم الزيادة والنقص محمول على أصل الإيمان وهو : التصديق وفيه نظر .

تعريف الإسلام :

وأما الإسلام فهو لغة : الخضوع والانقياد ، فهو غير الإيمان لغة قطعًا .

وأما شرعًا : فقد اختلف فيهما فمذهب أكثر الماتريدية ، وبعض محققي الأشاعرة إلى أنه الخضوع والانقياد للأوامر والنواهي بمعنى قبول ذلك والإذعان ، له وعليه فهو عين الإيمان ، فالإيمان والإسلام مترادفان شرعًا قال النسفي في العقائد : والإيمان والإسلام واحد .

والأكثر من الأشاعرة مع كثير من الماتريدية إلى تغايرهما مفهومًا كتغايرهما لغة إذ مفهوم الإيمان تصديق القلب بكل ما جاء به النبي ﷺ مما عُلم من الدين ضرورة أي الإذعان لذلك ، ومفهوم الإسلام امتثال الأوامر والنواهي ببناء العمل على ذلك الإذعان فهما مختلفان ، وإن تلازما شرعًا بحيث لا يوجد مسلم ليس بمؤمن ، ولا العكس . إذ يلزم من الإذعان الامتثال المذكور ، ومن الامتثال الإذعان . فليتأمل .

فإن قلت : إن الإسلام قد ينفرد عن الإيمان في المنافق ، كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات : ١٤] .

قلت : كلامنا في الإسلام المعتبر شرعًا المنجي من خلود النار ، وأما ما في



الآية ، فالمراد به الانقياد الظاهري فقط .

فإن قلت : قد فسّر النبي ﷺ الإسلام بنفس العمل حيث قال عليه الصلاة والسلام : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول اللّٰه ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا[1] .

فالجواب : أن مراده عليه الصلاة والسلام بالإسلام علاماته الدالة عليه كما قال عليه الصلاة والسلام لوفد قدموا عليه : أتدرون ما الإيمان باللّٰه تعالى وحده ؟ فقالوا : اللّٰه ورسوله أعلم فقال : شهادة أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول اللّٰه ، وإقام الصلاة وإتياء الزكاة وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس :

فقد فسّر الإيمان بعلاماته لظهور أن الإيمان ليس ما ذكر بل التصديق والإذعان قاله التفتازاني .

وقد جمع رحمه اللّٰه بين قولي الماتريدية والأشاعرة بالترادف وعدمه بأنهما خلاف في حال : فإن مفهوم الإسلام إن فُسِّر بالانقياد الظاهري بمعنى امتثال الأوامر والنواهي ، والعمل بمقتضى تلك الأحكام من غير ملاحظة الإذعان والتسليم القلبي ، كان مخالفًا لمفهوم الإيمانَ :

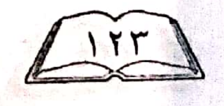
وإن فُسِّر بالاستسلام والانقياد الباطني بمعنى قبول تلك الأحكام ، والإذعان لها ، وترك الإباء والاستكبار عنها ، كان متحدًا معه . اهـ .

وقوله من غير ملاحظة الإذعان يعني في مفهومه فلا ينافي أنه لا بد من ملاحظة البناء عليه ليتأتى التلازم[2] .

---

(١) رواه مسلم في الإيمان ، ب بيان الإيمان والإسلام ١/ ٣٦.

(٢) الحق أنَّ الإسلام والإيمانِ مختلفان مفهومًا ، متحدان ما صدقا ، متلازمان شرعًا ، وغير ذلك تكلف .



شمول الشهادتين للعقائد

• النَّظم:

٥٨- وينطوي في كِلمةِ الإسلامِ ... ما قد مضى من سائرِ الأحكامِ

• الشــرح: **(وينطوي)** أي يندرج **(في)** معنى **(كلمة الإسلام)** أي الدالة على الإسلام وهي لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه، فإضافتها للإسلام من إضافة الدال للمدلول سميت كلمة لدلالتها على معنى واحد وهو الإسلام **(ما قد مضى)** ذكره **(من سائر)** أي جميع **(الأحكام)**: الإلهيات، والنبويات، والسمعيات.

<u>بيان ذلك أنها جملتان:</u>

الجملة الأولى: لا إله إلا اللَّه، والإله هو المعبود بحق، فالمعنى لا معبود بحق موجود، أو في الوجود إلا اللَّه، فقد دلت هذه الجملة على نفي الألوهية التي هي استحقاق المعبود للعبادة كما عرفت عن كل ما سواه، منطوقًا، وعلى ثبوتها له تعالى وحده مفهومًا.

وهذا يستلزم استغناءه تعالى عن كل ما سواه، وافتقار كل ما سواه إليه تعالى.

أما استغناؤه عن كل ما سواه فيوجب له تعالى، الوجود، والقدم، والبقاء، ومخالفته للحوادث، وقيامه بنفسه، إذ لو ماثل شيئًا منها للزمه ما لزمها من الافتقار، وهو محال، ولو قام بغيره، لكان مفتقرًا إلى ذلك الغير.

ويوجب له أيضًا التنزه عن النقائص، وهو يستلزم وجوب السمع، والبصر، والكلام، والتنزه عن الأغراض في الأفعال، والأحكام، وإلا لكان مفتقرًا إلى ما



يتكمل به من ذلك الغرض ، وعدم وجوب فعل شيء من الممكنات ، أو تركه ، وعدم كون شيء من الممكنات يؤثر بقوة أودعها اللَّه فيه ، وإلا لم يكن مستغنيًا عن كل ما سواه ، كيف وهو الغني بالإطلاق عن كل ما سواه .

وأما افتقار كل ما سواه إليه تعالى فهو يوجب له تعالى القدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والوحدانية ، لما تقدم من أن التعدد يوجب العجز .

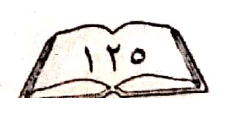
ويؤخذ منه حدوث العالم بأسره ، ونفي تأثير شيء منه بالطبع ، أو بالعلة ، وإذا وجب شيء استحال ضده .

هذا حاصل ما بينه الإمام السنوسي رضي اللَّه عنه .

ولك أن تقول : اللَّه علمٌ على الذات الواجب الوجود ، الخالق للعالم ، وقد دلت هذه الجملة على حصر الألوهية فيه تعالى ، وظاهر أن كونه واجب الوجود ، وخالقًا للعالم ، يتضمن جميع ما ذكر .

وأما الجملة الثانية : وهي قولنا : محمد رسول اللَّه : فقد دلت على ثبوت الرسالة له ﷺ ، وذلك يستلزم صدقه في كل ما أخبر به ، وأمانته ، وتبليغه للعباد كل ما أمر بتبليغه من الأحكام ، وفطانته إذ الرسول لا يكون إلا معصومًا ، واستحالة أضدادها عليه ﷺ ، وجواز كل ما لا يؤدي إلى نقص في علو مرتبته من الأعراض البشرية ، ووجوب صدقه يستلزم الإيمان بكل ما جاء به ، ومن ذلك إرسال الرسل وهو يستلزم ما يجب في حقهم ، وما يستحيل ، وما يجوز ، والإيمان بسائر الكتب السماوية ، واليوم الآخر ، والحساب ، وما عليه مما مر من جميع السمعيات .

ولتضمنها جميع عقائد الإيمان جعلها الشارع ترجمة على ما في القلب ، ولم يقبل من أحد الإسلام إلا بها ، ومن ثم كانت أفضل الأذكار . قال ﷺ :



«أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا اللَّه» .

وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة ، ولذلك اختارها السادة الصوفية في السلوك إلى اللَّه تعالى على غيرها من الأذكار .



علم التصوف

● النَّظم :

٥٩- فأكثِرَنْ مِن ذِكرِها بالأدَبِ تَرْقَى بهذا الذكرِ أعلَى الرُّتَبِ

٦٠- وغلِّبْ الخوفَ على الرَّجاءِ وسِرْ لمولاكَ بِلا تَناءِ

● الشـــرح :

إذا علمت ذلك (**فأكثرن**) بنون التوكيد الخفيفة (**من ذكرها**) أي كلمة الإسلام (**بالأدب**) أي مع الآداب التي ذكرها القوم ، وهذا شروع منه سامحه اللَّه تعالى في فن التصوف الذي هو حياة القلوب . رتَّبه على معرفة عقائد الإيمان ؛ لأنه لا يمكن السير إلى اللَّه تعالى إلا بعد معرفتها .

تعريف التصوف :

وحدُّ التصوف علمًا : هو علم بأصول يعرف به صلاح القلب ، وسائر الحواس .

وعملًا هو الأخذ بالأحوط من المأمورات ، واجتناب المنهيات ، والاقتصار على الضروريات من المباحات .

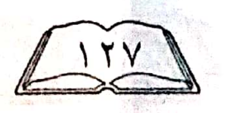
ويقال : هو الجد في السلوك إلى ملك الملوك .

ويقال : هو حفظ الحواس ، ومراعاة الأنفاس ، والمعنى متقارب .

وغايته : صلاح القلب ، وسائر الحواس في الدنيا ، والفوز بأعلى المراتب في العُقْبَى .

وموضوعه : الأخلاق المحمدية من حيث التخلق بها .

واعلم أن التصوف بمعنى العمل هو الطريقة .



وأما الشريعة فهي : الأحكام التي وردت عن الشارع المعبَّر عنها بالدين .

وأما الحقيقة فهي : أسرار الشريعة ، ونتيجة الطريقة ، فهي علوم ومعارف ، تحصل لقلوب السالكين بعد صفائها من كدرات الطباع البشرية ولا شيء أقرب لصفاء القلب من كثرة ذكر : لا إله إلا اللَّه مع الآداب التي ذكرها أهل اللَّه - رضي اللَّه تعالى - عنهم - ومتى ترك السالك الآداب أو أكثرها ، بَعُدَ عليه الوصول إلى مطلوبه .

آداب السالكين :

والآداب إما قبلّية ، وإما مصاحبة ، وإما بعدّية .

فالقبليَّة : أن يجدد التوبة مما وقع فيه من المخالفات ، أو الخواطر الرديئة .

وأن يتطهر من الحدث والخبث .

وأن يتوجَّه إلى اللَّه تعالى برغبة ، ليحصل له الجمعية في الذكر .

وأن يستغفر اللَّه تعالى بما تيسر بأي صيغة كانت .

وأن يصلي على النبي ﷺ كذلك ، وأن يستقبل القبلة ؛ لأنها أفضل الجهات .

وأن يستحضر شيخه ، ليكون رفيقه في السير ، ثم يشرع في الذكر .

وأما الآداب المصاحبة له : فأن يستحضر معناها إجمالًا .

وأن يحقق الهمزة ، ويمدَّ ألف « لا » مدًا متوسطًا ، ويفتح ها « إله » فتحة خفيفة ، ويمد ألف اللَّه ، وألف إله مدًا طبيعيًا ، ويأتي بالهاء من اللَّه ، ويقف عليها .

وأن يذكر بهِمَّة وقُوَّة .

وأن يكون ذكره رغبة في مرضاة اللَّه ومحبته ، وامتثالًا لأمره ، لا لرياء ، ولا

لسمعة ، ولا لأمر دنيوي أو أخروي .

وأن ينفي الأكوان من قلبه ؛ لأن ملاحظة شيء منها قاطع عن اللّٰه تعالى ، ولولا أن للشيخ مدخلًا في السير ، ما سوغوا له ملاحظته في حال البداية .

وأن يجلس كجلوسه في التشهد إلا لتعب ، فيجوز التربُّع .

وأن يغمض عينيه ، لأن له تأثيرًا في تنوير القلب .

وأن يبتدئ بلا جهة اليمين ، ويرجع بإله ، ويختم باللّٰه جهة اليسار مشيرًا إلى قلبه ، فإذا أراد ختم الذكر ختمه بمحمد رسول اللّٰه .

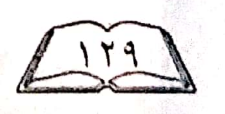
وأما الآداب البعديَّة : فإنه يسكت ويسكن بخشوع ، فإن للذكر واردات تَرِدُ على قلب الذاكر ، ولا يتمكن الوارد من القلب إلا بذلك ، فإذا كان الوارد وارد زهد ، وجب التمهل حتى يتم ، ويتمكن من القلب ، فتستوي عنده الدنيا ، أقبلت أم أدبرت .

وإذا كان وارد توكل ، صار بعد ذلك مفوضًا أمره إلى ربه في كل شيء .

وإذا كان وارد صبر ، صار بعد ذلك لا ينزعج من تفاقم الأهوال ، وهكذا من الواردات .

قال الإمام الغزالي رضي اللّٰه عنه : ولهذه السكتة آداب : مراقبةُ اللّٰه تعالى ، وإجراء معنى الذكر على قلبه ، ونفي الخواطر كلها ، وجمع حواسه كلها ، بحيث لا تتحرك منه شعرة كحال الهرة عند اصطياد الفأرة ، وأن يكتم نفسه بقدر الطاقة مرارًا أقلها ثلاثة إلى سبعة ، حتى يدور الوارد في جميع أركانه ، وأن لا يبادر بشرب الماء عقب الذكر ، فإنه يطفئ ما تحصل من أنواره .

فإن داومت على الذكر بهذه الآداب (تَرْقَى) أي تصعد وإثبات الألف



ضرورة على حد : ولا ترضاها ولا تملقي[1] (بهذا الذكر) المشتمل على الآداب أي بسببه (أعلى الرُّتَب) جمع رتبة . وهي : الخليقة الحسنة المحمودة عاقبتها ، وأدنى الرُّتَب الإسلامية لوم النفس على ما صدر منها من المخالفات ، وأعلاها رتبة الصديقية ينالها العبد بعد دخوله في مقام الإحسان ، وهو أن تعبد اللَّه كأنك تراه ، ورتبة الصديقية في نفسها مراتب متفاوتة بعضها أعلى من بعض ، وأعلاها رتبة أبي بكر الصديق رضي اللَّه عنه ولا يعلو مقام الصديقية إلا مقام النبوة . فصاحب مقام الصديقية لو تخطى مقامه لنزل في مقام النبوة إلا أن النبوة قد ختمت بنبينا محمد ﷺ ، والصديقية لم تختم . فمقام الصديقية مقام الولاية الكبرى ، والخلافة العظمى ، وهذا المقام تترادف فيه الفتوحات وتعظم التجليات ، وتتم المشاهدات والكشوفات ، لكمال النفس ، وحسن صفائها ، ولا يمكن الوصول إليه إلا بعد الفناء ، وهو زوال صفات النفس المذمومة بالكلية حتى لا تصير ملتفتة إلى شيء منها ، بل تزهدها كما تزهد أكل الجيفة مثلًا .

وصفاتها المذمومة هي الحسد ، والحقد ، وحب الجاه ، والصيت ، والمحمدة ، والرياسة ، والشهوات ، والكبر ، والرياء ، والعُجْب ، والنفاق ، والغرور ، وبغض أحد من الخلق لغير غرض شرعي ، ونحو ذلك .

فإذا زالت عنه هذه الأوصاف القبيحة اتصف بأضدادها من الصفات الحميدة كالشفقة ، والرأفة على الخلق ، حتى يحب لغيره ما يحب لنفسه ، والإخلاص ، وحسن الخلق ، والسخاء ، والمسكنة التي طلبها النبي ﷺ

---

(١) هذا عجز بيت . وصدره : إذا العجوز غضبت فطلق : ولا ترضاها ولا تملقى .. بإثبات حرف العلة مع الجزم بلا الناهية . ويمكن أن يقال إن ألف (ترقى) زيدت للإشباع .

بقوله: «اللهم احيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين»[1]. وهذه المسكنة هي خضوع النفس لمقام الألوهية، وخفض الجناح للبريَّة، حتى لا يشم صاحبها للرياسة رائحة، وصاحبها هو العبد الحقيقي الصِّدِّيق. فمن لم يتصف بها، لم تخل نفسه من منازعة الحق تعالى في أخص أوصافه؛ لأن الرياسة إنما تكون للفاعل المختار، الغني على الإطلاق، وهي لا تفارق الإنسان إلا بعد المجاهدة الكبرى، فعرقها لا ينقطع عن أحد إلا مَن خصَّه اللّٰه بالعبودية المحضة، ولذا قالوا آخر ما يخرج من قلب الصديقين حب الرياسة، ولا يسهل الوصول إليها عادة إلا بمداومة ذكر: لا إله إلا اللّٰه ليلًا ونهارًا مع تعلق القلب باللّٰه وحده والجوع والسهر، والاعتزال عن الناس، والصمت إلا عن ذكر اللّٰه تعالى، وملاحظة بقية أركان الطريق التي سيأتي بيانها[2]، إن شاء اللّٰه تعالى، وهو المسمى بالمجاهدة. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ١٩].

وهذا الترقي هو المسمى بالسلوك إلى ملك الملوك عند الطائفة. وأما السير إلى اللّٰه تعالى، فهو توجه القلب إلى الرب مع مخالفة النفس في شهواتها ولو مباحة طلبًا لمرضاة اللّٰه تعالى، وإيثارًا له على ما سواه. فالسير كالسبب في

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري. كشف الخفا ١/ ٢٠٦.

(٢) وهي خمسة: تجديد التوبة، والشكر، والصبر، والفكر، والشيخ العارف. وقد عدَّ الشارح الأصول عشرة. لكن منها أربعة مشتركة بين أهل الطريق وغيرهم. وهي: الفكر، والشكر، والصبر، وتجديد التوبة. وستة مخصوصة بأهل الطريق؛ لتوقف وصولهم عليها عادة، وهي: دوام الذكر، والصمت، والسَّهر، والجوع، والعزلة، والشيخ العارف الذي يدل على اللّٰه تعالى.



السلوك وقد يطلق السلوك على المعنى الثاني أيضًا[1] .

والسلوك إلى الله تعالى طريقة : النبيين ، والصديقين ، والعلماء العاملين ، إلا أنه مختلف .

فسلوك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مبدؤه الترقي من نفوس مطهرة كمالية إلا ما لا نهاية له من المقامات الإحسانية ، وهو في نفسه متفاوت فسلوك أولي العزم منهم أعلى وأجل من سلوك غيرهم ، وسلوك سيد أولي العزم عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام أعلى من غيره ، إذ مبدؤه نهاية غيره .

وأما سلوك غيرهم فمن نفوس أمارة أو لوامة ظلمانية إلى نفس كاملة صديقية .

والنهايات تختلف في الإشراق بحسب اختلاف البدايات ، فبإحراق البداية[2] يكون إشراق النهاية .

أنواع النفوس :

والنفوس سبعة[3] بحسب أوصافها وإلا فهي واحدة .

الأولى : النَّفْس الأمارة بالسوء وهي التي لا تأمر صاحبها بخير فإذا جاهدها صاحبها وخالفها في شهواتها حتى أذعنت لاتباع الحق ، وسكنت تحت الأمر التكليفي ، ولكنها تغلب صاحبها في أكثر أحوالها ، ثم ترجع إليه باللوم على ما وقع سُمِّيت : لوامة وهي الثانية .

---

(١) أي التوجه إلى الرب مع مخالفة النفس في شهواتها . إلخ .

(٢) إحراق البداية : أي بالمجاهدة بالذكر والفكر ، وإشراق النهاية : أي بالعلوم . والمعارف ، والأسرار .

(٣) أي عند السادة الخلوتية ، وأما عند السادة الشاذلية فثلاثة : أمارة ، ولوامة ، أو مطمئنة . فأدخلوا الملهمة في اللوامة ، وأدخلوا الراضية ، والمرضية ، والكاملة في المطمئنة .

فإذا أخذ في المجاهدة والكدِّ ، حتى مالت إلى عالم القدس ، واستنارت بحيث ألهمت فجورها وتقواها ، سُمِّيت : ملهمة ، وهي الثالثة .

وعلامتها أن يعرف صاحبها دسائسها الخفية الدقيقة من الرياء والعجب وغير ذلك ، فإذا لزم المجاهدة حتى زالت عنه الشهوات ، وتبدلت الصفات المذمومة بالمحمودة ، وتخلقت بأخلاق اللّٰه تعالى الجمالية من الرأفة ، والرحمة ، واللطف ، والكرم ، والود ، سُمِّيت : مطمئنة . وهي الرابعة .

وهذا المقام هو مبتدأ الوصول إلى اللّٰه تعالى ، ولكنها لا تخلو من دسائس خفية جدًا ، كالشرك الخفي ، وحُبِّ الرياسة ، إلا أنها لخفائها ودقتها لا يدركها إلا أهلها الذين نوَّر اللّٰه بصائرهم ، لأن ظاهرها الصلاح والاتصاف بالصفات الحميدة من الكرم والحلم ، والتوكل ، والزهد ، والورع والشكر ، والصبر والتسليم ، والرضا بالقضاء مع انكشاف بعض أسرار ، وانخراق بعض عادات ، وظهور بعض كرامات ، فلربما ظنَّ صاحبها أنه الإمام الأعظم ، وأن مقامه هو المقام الأفخم ، وهذا من جملة الدسائس ، فإذا أدركته العناية الإلهية ، واستند إلى شيخه بالكلية ، ولازم المجاهدة حتى تمكن من الصفات المحمودة ، وانقطع عنه عرق الرياء ، وصارت نفسه ذليلة ، واستوي عنده المدح والذم ، ودخلت في مقام الفناء ، ورضيت بكل ما يقع في الكون من غير اعتراض أصلًا سُمِّيت : راضية وهي الخامسة .

ولكن رؤية الفناء والإخلاص ، ربما أوقع في شيء من الإعجاب ، فيرجع به القهقرى ، فليستعذ باللّٰه من ذلك ، مع مداومة الذكر والالتجاء إلى اللّٰه ، وملاحظة أنه لا يتم له الخلاص إلا بمدد الشيخ ، فإذا فني عن الفناء ، وخلص من رؤية الإخلاص ، تجلى عليها بالرضا ، وعفا عن كل ما مضى ، وتبدُّلت

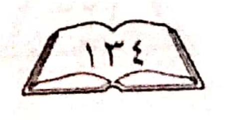


سيئاتها حسنات . وانفتح لها أبواب الأذواق والتجليات ، فصارت غريقة في بحار التوحيد ، وآنستها بلابل الأسرار بالتغريد ، ولذا سُمِّيت : مرضيَّة ؛ لأنها بعنايات اللَّه مرعيَّة . وهي السادسة

إلا أن صاحب الهِمَة العليَّة لا يرضى بالوقوف عند هذه المقامات ، وإن كانت سنيَّة ، بل يسير من الفناء إلى البقاء ، ويطلب وصل الوصل بتمام اللقاء ، فتناديه حقائق الأكوان . إنما نحن فتنة فلا تكفر . وأن إلى ربك المنتهي . فإذا سار إلى منازل الأبطال ، وخلف الدنيا وراء ظهره ناداه ربه بأحسن مقال : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] ، فيدُخِلُها ربها في عباد الإحسان ، ويخلع عليه خِلَعَ الرضوان ، ويدخلها جنات الشهود ، ويجلسها في مقعد صدق عند الملك المعبود ، وفي هذا المقام قد تمَّت المجاهدة والمكابدة ، لأن صفات الكمال صارت لها طبعًا وسجيَّة ، وتُسَمَّى النفس فيه : بالكاملة ، وهي السابعة .

وهي أعظم النفوس قدرًا ، وأكملها فخرًا ، ومع ذلك لا ينقطع ترقيها أبدًا ، لأن الكامل يقبل الكمال ، فلم تزل تترقى حتى تشهد الحق تعالى قبل الأكوان ، ومشاهدته تعالى قبل كل شيء هو المسمَّى عندهم بالمعاينة ، وهذا هو عين اليقين ، بعد أن حازت علم اليقين ، الذي هو معرفته تعالى بالبراهين ، ثم حق اليقين ، وهي مشاهدته تعالى في كل شيء من غير حلول ولا اتحاد ، ولا اتصال ولا انفصال . كالمرآة ترى فيها وجهك من غير حلول الوجه فيها ، ولا اتحاد .

وهذا مشهد ذوقي ، لا يدركه إلا أهله ، وصاحب هذا المقام لا يفتر عن العبادة ؛ لأنها صارت طبعه إما باللسان ، وإما بالجنان ، وإما بالأركان ،



فحركاته حسنات ، وأنفاسه عبادات ، ولذا قال سيدي محمد وفا[1] أبو سيدي على وفا رضي اللَّه عنهما :

وبعد الفنا باللَّه كن كيفما تشا   فعلمك لا جهل وفعلك لا وزر

فهو محفوظ من الوقوع في المخالفات ، لحضوره دائما مع اللَّه في جميع الحالات .

واعلم أن الكاملين في الناس من أقل الأقل ، إذ السالكون إلى اللَّه تعالى من المؤمنين قليلون ، والواصلون منهم قليلون ، والكاملون منهم قليلون ، إذ السير إلى اللَّه تعالى صعب جدًا . لا يقدر عليه إلا ذو هِمَّة عليَّة ، وصدق كامل ؛ إذ ترك المألوفات من الطعام ، والمنام ، وجمع المال ، وحب الجاه ، وسائر الشهوات ، لا يقدر عليه إلا القليل من الأبطال ، والطريق فيها مفاوز ومهلكات ، فالناجي فيها قليل . ولذا قيل :

كيف الوصولُ إلى سعادَ ودونها   قُلَلُ الجبالِ ، وبينهنَّ حُتُوفُ
والرِّجلُ حافيةٌ ومالي مَرْكبٌ   واليدُ صِفْرٌ والطريقُ مَخُوفُ

الخوف والرجاء :

(**وغلِّب**) في حال اشتغالك بالذكر المذكور (**الخوف**) من اللَّه تعالى ما دمت في حال الصحة (**على الرجاء**) في رحمته وعفوه يريد أنه لابد للعبيد من الخوف والرجاء معًا ؛ لأنهما كجناحي الطائر متى فقد أحدهما سقط[2] . إلا

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد أبو الفضل المعروف بالسيد محمد وفا الشاذلي رأس الوفائية . ولد بالإسكندرية ، ونبغ في النظم الصوفي ، ومريدوه كثرة : وخاصة أعيان الدولة . وله مؤلفات ، ويقال : كان أميًا ، ت٧٦٥هـ . الأعلام ٧/ ٣٨.

(٢) خوف السائر إلى اللَّه السالك لطريقه يسمى قبضًا . ورجاؤه يسمى : بسطًا ، والتوسط يسمى : أنسًا وهيبة .



أنه في حال الصحة والسلامة ينبغي تغليب جانب الخوف على جانب الرجاء، لأنه كالسَّوط ينساق به إلى الاعتناء بالعبادة، وبه تزول الرعونات النفسيَّة عن القلب إن شاء اللَّه تعالى، فإذا نزل به المرض، وأشرف على الموت، فينبغي تغليب جانب الرجاء على الخوف، لأنه حال القدوم على الكريم.

والخوف هَمٌّ وقلق لما هو آت. والحزن هم لما فات.

والرجاء تعلُّق القلب بمرغوب يحصل في المستقبل مع الأخذ في الأسباب. فإن لم يأخذ في الأسباب فطمع، وهو مذموم شرعًا.

(**وسِرْ**) سيرًا حثيثا (**لمولاك**) أي سيدك وخالقك (**بلا تناء**) أي بلا تباعد عن الطريق المستقيم الموصل إلى اللَّه تعالى، بأن تعلق قلبك بغيره تعالى.

وتقدم أن السير عبارة عن تعلُّق القلب باللَّه تعالى مع مخالفة النفس في شهواتها إيثارًا له تعالى على غيره، وهذا هو الطريق المستقيم الموصل إلى اللَّه تعالى، وهي طريق الشطار من أهل المحبَّة والشوق إلى بارئ النَّسَم، ومبناها على الموت بالإرادة لخبر «موتوا قبل أن تموتوا»[1]. ولذا قال سيدي عمر بن الفارض:

ونفسي كانت قبلُ لوامةً متى أطعها	عصتْ أو أعص كانت مطيعتي
فحملتها ما الموت أيسر بعضه	وأتعبتُها كيما تكونُ مُريحتي
فعادت ومهما حملته تحملتْ	هُ مني وإن خفَّفتُ عنها تأذَّتِ

❁ ❁ ❁

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: هو غير ثابت. كشف الخفا ٢/ ٣٨٤.



أصول الطريق

- النَّظم :

٦١- وجَدِّدْ التوبةَ للأوزارِ لا تيأسَنَّ مِن رحمةِ الغفارِ

٦٢- وكُنْ على آلائهِ شكورًا وكنْ على بلائِه صبورًا

٦٣- فكلَّ أمرٍ بالقضاءِ والقَدَرْ وكلُ مَقْدورٍ فما مِنه مَفَرْ

٦٤- فكنْ له مُسْلِّمًا كي تَسْلَما واتبعْ سبيلَ الناسكين العُلَما

٦٥- وخلِّص القلبَ من الأغيارِ بالجدِّ والقيامِ في الأسحارِ

٦٦- والفكرِ والذكرِ على الدَّوامِ مجتنبًا لسائرِ الآثَامِ

٦٧- مراقبًا للَّهِ في الأحوالِ لِتَرتقَى مَعَالمَ الكمَالِ

- **الشـــرح :**

وأصولها عشرة :

الأول : التوبة من كل ذنب ، ولو صغيرة على التحقيق ، وإليه أشار بقوله (**وجدد**) وجوبًا (**التوبة**) أي الرجوع إلى اللَّه تعالى (**للأوزار**) أي من أجل ارتكابك الأوزار ، جمع وزر . وهو المعصية

وأركانها ثلاثة : الندم على ما وقع منه من المخالفات لمراعاة حق اللَّه سبحانه وتعالى ، والعزم على أن لا يعود لمثله وهذان لابد منهما في كل توبة . والثالث : الإقلاع عن الذنب في الحال . وهذا إنما يتأتي في ذنب لم ينقض فيجب الكف عن استتمام الزنا ، وشرب الخمر ، وعن أذية أحد ورد المظالم إلى أهلها ، واستسماح المظلوم إن أمكن ، وإلا استغفر له ، وتصدق له بما يمكنه ، فإن اللَّه تعالى إذا علم صدق العبد أرضى اللَّه عنه خصماءه .

وتصح التوبة من ذنب دون آخر ، بخلاف السير إلى اللَّه تعالى ، فإنه إنما



يصح بالتوبة عن الجميع .

وتجب المبادرة بها ، فتأخيرها ذنب آخر .

وتوبة الكافر عن كفره بالإسلام مقبولة قطعا والمؤمن المذنب من ذنبه مقبولة ظنًا . وقيل قطعًا .

ولا تنتقض التوبة بالرجوع إلى الذنب ، ولو رجعت إليه في اليوم ألف مرة ، ويجب تجديدها عند كل رجوع إليه (**لا تيأسن من رحمة الغفار**) أي الستار للذنوب ، فإن رحمة اللَّه تعالى وسعت كل شيء والولي هو الذي كلما وقع تاب قال اللَّه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، وهم الذين كلما أذنبوا تابوا . ومن أحبه اللَّه تعالى قربه وأدناه . وليس شيء أشد على الشيطان من تجديد المؤمن للتوبة ، واليأس أي القنوط من رحمة اللَّه تعالى كبيرة أو كفر . قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف : ٨٧] .

الثاني : شكر المنعم جلَّ وعزَّ . وهو : صرف العبد جميع ما أنعم اللَّه به عليه من عقل وسمع وبصر ولسان وغيرها إلى ما خلق لأجله ، وإليه أشار بقوله : (**وكن على آلائه**) جمع ألي كظلي بمعني النعمة ، أي كن على نعمائه التي أنعمها عليك ظاهرية كانت كالسمع والبصر وسلامة الأعضاء أو باطنية كالإيمان والعلم (**شكورًا**) أي كثير الشكر .

فهو يرجع إلى اعتقاد بالجنان ، وخدمة بالأركان ، ونطق باللسان ، بأن يعتقد أن لا نعمة إلا منه تعالى ، وينطق بلسانه بأنه لا إله إلا هو ، وبغيره من الأذكار . ويعمل بجوارحه كل ما طلب منه من المأمورات واجبة كانت أو مندوبة ومن النعم التي يجب الشكر عليها التوفيق للتوبة ، والشكر على الشكر والشكر لا نهاية له . ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « سبحانك لا نحصى ثناء



عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[1] ، والشكر بهذا الاعتبار عزيز جدًّا . لأنه طريق الصديقين ، ولذا قال تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ : ١٣] .

الثالث : الصبر على البلاء وهو حبس النفس على ما أصابها مما لا يلائمها رضا بتقدير المالك المختار من غير انزعاج ، وإليه أشار بقوله (**وكن على بلائه**) من مرض ، وضيق عيش ، وفقد مال وعيال ، وأذيّة أحد وغير ذلك ، ومنه الأحكام التكليفية كالصلاة والصوم (**صبورًا**) أي كثير الصبر فإنه تعالى يحب عبده الصبور قال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة : ١٥٥] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : ١٠] ، والصبر وصف أولى العزم ، والهمم العلية .

وقد ورد فيه وفي الشكر من الآيات والأحاديث الشريفة ما لو تُتبع لأدي إلى مزيد من التطويل المخرج عن المقصود . وبالجملة يندرج تحتهما كل الدين من المأمورات ، والمنهيات ، فناهيك بهما مدحًا لمن اتصف بهما فتأمل .

القضاء والقدر :

ثم علل الصبر بقوله (**فكل أمر**) أي وإنما طُلب منك الصبر ؛ لأن كل ما برز في الكائنات فهو (**بالقضاء**) أي بسببه .

وهو عند الأشاعرة : إرادة اللَّه المتعلقة أزلا بتخصيص الكائنات ببعض ما يحوز عليها أي على طبق علمه (**و**) بسبب (**القَدَر**) بفتح الدال . وهو عندهم : إيجاد اللَّه تعالى الأمور على طبق إرادته .

وقال الماتريدية : القضاء عِلمُ اللَّه المتعلق أزلا بوجود الأشياء . والقدر :

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة ١٢/ ٣٥٢.



إيجاد الأمور على طبقه .

وعلى كلٍّ فالقضاء صفة ذات بقيد تعلقها[1] . والقدر صفة فعل . ونظم ذلك العلامة الأجهوري بقوله :

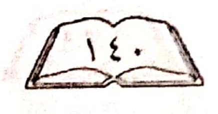
إرادةُ اللَّـه مع التعلق   في أزل قضاؤه فحقِّق
والقَدَرُ الإيجاد للأشياء على   وجه معين أراده علا
وبعضُهم قد قال معنى الأول   العِلمُ مع تعلُّقٍ في الأزل
والقَدَرُ الإيجادُ للأمورِ   على وفاقِ علمه المذكور

(وكل مقدور) أي أمر قد قدَّره اللَّه تعالى أي أبرزه إلى الوجود بما سبق في سابق علمه وقضائه (فما عنه مفر) أي لابد من وقوعه على طبق ما أراد وعلم ولا محيص عنه . فيجب إذن الصبر و التسليم لما قدره العليم الحكيم ، فإن لم يصبر وانقلب على وجهه فقد خسر الدنيا والآخرة من غير تخفيف عنه ، ولا ناصر ينصره .

الرابع : الرضا : وهو : الخروج عن رضا نفسه بالدخول في رضا ربه بالتسليم للأحكام الأزلية ، والتفويض للتدبيرات الأبدية ، بلا إعراض ولا اعتراض ، وإليه أشار بقوله مفرعًا على ما قبله (**فكن**) أيها الطالب لرضا مولاه (**له**) تعالى (**مسلمًا**) في كل ما قدره وقضاه ، أو أمر به من أحكام الدين ، أو نهي عنه بأن ترضى بذلك من غير إعراض ولا اعتراض (**كي**) أي لأجل أن (**تسْلَما**) من آفات الدنيا والآخرة .

---

(١) أي على قول الأشاعرة بأنه الإرادة المتعلقة بالأشياء أزلًا ، أو رأي الماتريدي بأنه العلم المتعلق بالأشياء أزلًا . فالقضاء قديم على كليهما . وهو صفة ذات ، أما القدر فهو صفة فعل حادثة عند الأشاعرة قديمة عند الماتريدية لأنها صفة التكوين .



الخامس : اتباع شيخ عارف قد سلك طريق أهل اللّٰه على يد شيخ كذلك إلى أن ينتهي إلى رسول اللّٰه ﷺ . ومن لم يصحب شيخًا يدله على الطريق إلى اللّٰه ، واستقل بما عنده من عبادة أو علم ، فقد تعرض لإغراء الشيطان له ، ولهذا قيل : من لا شيخ له فالشيطان شيخه .

وبالجملة من لم يسلك على يد شيخ عارف فلا يمكنه الترقي إلى منازل القرب ، ولو أتي بعبادة الثقلين .

وعلامته : السخاء ، وحسن الخلق ، والشفقة على خلق اللّٰه تعالى ، وعدم انكبابه على جمع الدنيا ، وعدم الدعوى ، ولو بالتكلم بمصطلح القوم إلا لأمر اقتضي ذلك ، وعدم الشكوى من ضيق الدنيا ، أو من إعراض الناس عنه ، وأن يرى عليه مخايل الذل والانكسار ، وحب الخمول ، وأن تظهر على أصحابه البركة والصلاح .

وهذا مأخوذ من قولنا (**واتبع**) في سيرك (**سبيل**) أي طريق (**الناسكين**) جمع ناسك أي عابد (**العُلَما**) جمع عالم ، وهو العارف بالأحكام الشرعية التي عليها مدار صحة الدين اعتقاديه كانت ، أو عملية . والمراد بهم السلف الصالح ، ومن تبعهم بإحسان ، وسبيلهم منحصر في اعتقاد ، وعلم ، وعمل على طبق العلم .

وافترق من جاء بعدهم من أئمة الأمة الذين يجب اتباعهم على ثلاث فرق :

فرقة نصبت نفسها لبيان الأحكام الشرعية العملية . وهم الأئمة الأربعة وغيرهم من المجتهدين ، لكن لم يستقر من المذاهب المرضية سوى مذاهب الأئمة الأربعة .

وفرقة نصبت نفسها للاشتغال ببيان العقائد التي كان عليها السلف وهم



الأشعري والماتريدى ، ومن تبعهما .

وفرقة نصبت نفسها للاشتغال بالعمل والمجاهدات على طبق ما ذهب إليه الفرقتان المتقدمتان وهم الإمام أبو القاسم الجنيد ومن تبعه .

فهؤلاء الفرق الثلاثة هم خواص الأمة المحمدية ، ومن عداهم من جميع الفرق على ضلال . وإن كان البعض منهم يحكم له بالإسلام ، فالناجي من كان في عقيدته على طبق ما بينه أهل السنة ، وقلد في الأحكام العملية إمامًا من الأئمة الأربعة المرضية .

ثم تمام النعمة والنجاة في سلوك مسلك الجنيد وأتباعه بعد أن أحكم دينه على طبق ما بينه الفريقان المتقدمان ، وممن سلك مسلكه القطب الرباني الإمام سيد أحمد بن الرفاعي وأتباعه ، والقطب الرباني الإمام سيدي عبد القادر الجيلاني ، وأتباعه ، والقطب الرباني السيد أحمد البدوي وأتباعه ، والقطب الرباني السيد إبراهيم الدسوقي وأتباعه ، والقطب الرباني السيد علي أبو الحسن الشاذلي وأتباعه ، والقطب الرباني سيدي محمد الخلوتي وأتباعه ، والقطب الرباني سيدي عبد اللَّه النقشبندي وأتباعه .

فهؤلاء كلهم سادات الأمة المحمدية رضي اللَّه عنهم وعنا بهم آمين .

فالشيخ الذي يدل على اللَّه تعالى يجب أن يكون قد سلك على طريقة شيخ من مشايخ الطريق ، وتعب وجاهد نفسه حتى تهذَّبت ، وزالت عنها الرعونات البشرية ، وإلا فيجب اجتنابه ، فإن كثيرًا من الناس قلَّد إمامًا من الأئمة الأربعة رضي اللَّه عنهم ، ولكنه في عقائده زاغ عن اعتقادهم ، فلم يعتقد معتقد أهل السنة ، وهم فرق شتى قد ضلوا في عقائدهم ، كالقدرية وغيرهم .

ومن الناس من لم يرض بتقليد إمام من الأئمة الأربعة ، ولا باعتقاد أهل



السنة ، وهم أضل ممن قبلهم .

ومن الناس من يزعم أنه سالك طريق أهل اللَّه تعالى ، فيتزيا بزيهم ، ويتكلم بما يوهم الناس أنه منهم ، والحال أنه بطّال ، يملأ بطنه من الطعام سواء كان حلالًا أو حرامًا ، وليله من المنام ، ويثب على الدنيا وثوب الأسد على الفريسة ، وربما جعل نفسه شيخًا ، وله أتباع يصطادون له بشرك مشيخته قاذورات الحطام الفاني ، ويزعمون أنهم على شيء أولئك هم الكاذبون . وقد أشار لهم العارف باللَّه تعالى سيدي عمر بن الفارض رضي اللَّه عنه بقوله :

رضوا بالأمانيِّ وابتُلوا بحظوظهم	وخاضُوا بحارَ الحُبِّ دعوى فما ابتلُّوا
فهم في السرى لم يبرحوا من مكانهم	وما ظعنوا في السير عنه ، وقد كَلُّوا

بل تأخروا ورجعوا القهقري لأنهم تبعوا هوى أنفسهم ، والشيطان يقودهم إلى كل ما يحبه منهم كما قال :

وعن مذهبي لما استحبوا العمى على الـ	هدى حسدًا من عند أنفسهم ضلوا

حتى صار من أخلاقهم أن من تصدق عليهم بصدقة أو أكرمهم بكرامة ، اتخذوا ذلك عادة ، وطلبوا بها من فعل معهم الإحسان حتى يضيقوا عليه المسالك ، ويقولون أعطنا عادتنا وإلا نتشوف عليك فيوهمون الناس أنهم أرباب أحوال ، وأن اللَّه تعالى يصدقهم في المقال ، كلا ما هذه طريقة الفقراء أهل اللَّه ، إنما طريقتهم التواضع والانكسار ، وحب الخمول ، والعفة ، والزهد ، والورع ، والإيثار ، والتوكل ، وأما هؤلاء فهم أشرار الناس ، يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويدعون المراتب العلية ، وهم في الدركات السفلية ، وقد كثروا في هذا الزمان ، حتى ملئوا طباق الأرض في كل قطر ومكان ، نعوذ باللَّه منهم . قال أستاذنا السيد البكري في ألفية التصوف :



وقد نما في ذا الزمان شرُّهم حتى سما في الناس جِدًّا ضَرُّهم
ولم يكن لهم هنا من يردع من أجل ذا الدين الحنيفي ودَّعوا

ولما نظر أهل اللّٰه إلى كثرتهم، وكثرة فسادهم، واختلال عقائدهم، أغلقوا أبواب زوايا الإرشاد، وفوضوا الأمر إلى رب العباد، واختفوا في الناس، فلم يعرفهم إلا من خصه اللّٰه بالأنوار الألهية، والسعادة السرمدية، فعلى من تشوقت نفسه إلى سلوك طريق التجريد حتى يستغرق في بحار التوحيد ملازمة التقوى، والالتجاء إلى اللّٰه، والتوسل إليه برسوله عليه الصلاة والسلام في أن يجمعه على شيخ عارف يربيه، ويخرجه من الظلمات النفسية ويصفيه، ويسقيه من خمر المحبة ويصافيه، فإذا علم اللّٰه صدقك أطلعك عليه، فإذا اجتمعت به، فشد يدك عليه، وكن كالميت بين يديه، وقل الحمد للّٰه الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّٰه ثم خذ في الجد والابتهال، وجد بنفسك لا بالمال كما قال:

فنافِسْ ببذل النفس فيها أخا الهَوَى فإذا قَبِلَتْها منك يا حبذا البذلُ
ومن لم يَجُدْ في حُبِّ نُعْمَي بنفسِه ولو جاد بالدنيا إليه انتهى البخلُ

السادس: الجوع اختيارًا: بأن لا يأكل أكثر من أكلة خفيفة في يومه وليلته من الحلال، وهو ما جهل أصله، ولا يمكنه ذلك في ابتداء أمره، إلا بكثرة الصوم، فإنه لجام السائرين.

واعلم أن العمل ثمرة المأكول، فالأكل الحرام لا ينشأ عنه إلا أعمال خبيثة مُحَرَّمة، والحلال الصِّرف لا ينشأ عنه إلا الأعمال الصالحة، والمتشابه ينشأ عنه أعمال مختلطة لا تخلو عن الرياء، والعجب، والخواطر الردية.

السابع: العزلة عن الناس قاطبة إلا عن شيخه المربي له أو أخ صالح يعينه



على الطاعة والهمَّة ، وإلا لضرورة بيع أو شراء ، إذ مخالطة الناس تكسب القلب ظلمة ، لو فرض أنها تخلو عن ارتكاب المحرمات ، فكيف ولا يخلو مجلس عنها من غيبة ونميمة وغيرهما ولبعضهم :

لقاء الناس ليس يفيد شيئًا سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا لأخذ العلم أو إصلاح حال

الثامن : الصَّمْت إلا عن ذكر اللَّه تعالى ، فإن الكلام يوجب التفرق ، والمطلوب الجمعية ، وهذا على تقدير مخالطة الناس لضرورة ، وهذه مأخوذة من قولنا : (**وخلص القلب من الأغيار**) أي مما سوى اللَّه تعالى من مال وزوجة وولد وجاه وعلم وعمل وغيرها من كل مشغل عن تعلق القلب بالرب (**بالجد**) بكسر الجيم أي الاجتهاد أي بسببه قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، والمجاهدة تكون بمخالفة النفس في هواها مع الخوف من اللَّه تعالى بعد التوبة قال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات : ٤٠، ٤١] أي جنة الشهود في الدنيا وجنة الخلود في العقبى إلا أن شرط السير أن لا يكون خائفًا من عذاب اللَّه وإلا كان عبد سوء ، لا يعمل إلا إذا خاف العقاب ، بل يخافه إجلالًا ومهابة ، ولذا قال تعالى : ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمن : ٤٦] ، ولم يقل عذاب ربه فافهم .

التاسع : السَّهَر : فلا ينام الثلث الأخير من الليل للتهجد ، والاستغفار ، وذكر اللَّه تعالى وإليه أشار بقوله : (**والقيام في الأسحار**) وخصَّه بالذكر وإن دخل فيما قبله لمزيد الاعتناء به ، وقد مدحهم اللَّه تعالى في غير آية ، قال تعالى : ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات :



١٧، ١٨]، وللذكر في ذلك الوقت تأثير أكثر منه في غيره.

العاشر: التفكر في بديع صنع الله لإدراك دقائق الحكم، لتزداد علمًا وحبًا والذكر قيامًا، وقعودًا، واضطجاعًا على سبيل الدوام وإليه أشار بقوله: **(والفكر والذكر على الدوام)**.

واعلم أن الذكر أعظم أركان الطريق، لأن المقصود منها تخليص القلب مما سوى الله تعالى. وهو أعظمها في ذلك، لأن كثرته توجب استيلاء المذكور على القلب حتى لا يكون فيه سواه، بل جميع الأركان تنشأ عنه، لأنه يورث القلب نورًا ساطعًا، به يزهد الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة، ولذا قالوا: من أعطي الذكر فقد أعطي منشور الولاية، فالمداومة عليه دليل ولاية المشتغل به، ولكونه أعظم الأركان وقع الحث عليه في القرآن المجيد أكثر من غيره من الأركان، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩١]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، إلى غير ذلك.

والذكر نوعان:

الأول: الذكر باللسان، وهو شأن أصحاب البدايات، فيجب عليهم موالاة الذكر باللسان، مع تكلف الحضور بالقلب حتى يصير الحضور طبيعة



له ، ولا يترك الذكر لوجود الغفلة فيه ، فلرب ذكر مع غفلة يرفعه إلى الذكر مع الحضور ، ولرب ذكر مع الحضور يرفعه إلى الذكر مع الغيبة عما سوى المذكور[1] ، فإذا غاب عما سوى المذكور ، استغرق في عين بحر الوحدة ، فيصير القلب حينئذ بيت الرب تعالى ، فينشأ عنه الذكر من غير قصد ولا تدبر لامتزاجه بروحه وجسمه .

وأنواع الذكر اللساني كثيرة ، منها : التسبيح ، والتكبير ، وتلاوة القرآن ، وغير ذلك ، وأسرعها إجابة للمبتدئ ، لا إله إلا اللّٰه مفردة عن محمد رسول اللّٰه على التحقيق ، فيما عدا الختم ، فإذا أراد الختم ختم بها ، وفي بعض الطرق الشاذلية أنه يذكرها على رأس كل مائة ، هذا إذا ذكر وحده ، أما إذا ذكر مع جماعة فلا يذكرها إلا عند الختم مع إخوانه ، ولهذا درج أرباب الطرق المحمدية على الاقتصار عليها ، فإذا كمل السالك فالأفضل له أن يضم معها محمد رسول اللّٰه ، والأفضل حينئذ الاشتغال بتلاوة القرآن ليتخلق به ، وتفاض عليه العلوم اللدنية من أسراره ، فإن لم يكن يحفظ القرآن اشتغل بسماعه ممن يقرؤه ، وإن كان القارئ صاحب غفلة ويكون الأمر على حد قول العارف باللّٰه تعالى سيدي عمر بن الفارض رضي اللّٰه عنه :

يا أختَ سعدٍ من حبيبي حبيتني	برسالةٍ أديتها بِتَلَطُّفِ
فسمِعتُ مَا لَمْ تَسمعي ، ونظرتُ ما	لم تنظري ، وعَرَفتُ ما لم تَعْرِفي

---

(١) هذا قريب من قول ابن عطاء اللّٰه في حكمه : « لا تترك الذكر لعدم حضورك مع اللّٰه تعالى فيه . لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك مع وجود ذكره ، وعسى أن يرفعك من ذكر وجود غفلة ، إلى ذكر مع وجود يقظة ، ومن ذكر مع وجود يقظة ، إلى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور . إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور . وما ذلك على اللّٰه بعزيز » .



النوع الثاني : الذكر بالقلب ، وهو شأن أرباب النهايات ، ومنه الفكر في بدائع المصنوعات ، وأعظمها المراقبة الآتي بيانها .

وبعضهم يعد الأصول أكثر من ذلك ، وبعضهم يعدها أقل ، وفي الحقيقة كلها أمور لا بد منها ، وعمدتها الذكر والصدق في التوجه بمخالفة النفس في شهواتها ، ومقاساة الصبر على يد شيخ كامل (مجتنبًا) حال من فاعل خلص (لسائر) أي لجميع (الآثام) كبائرها وصغائرها ، ظاهرها كالقتل والزنا وشرب الخمر وأكل الحرام ، والغيبة والنميمة والنظر إلى محرم ، وغير ذلك وباطنها كالحسد والحقد والغرور والرياء والعجب والكبر والبخل والنفاق وحب الجاه والرياسة .

مراقبة اللَّه تعالى:

(مراقبًا للَّه في الأحوال) أي جميع أحوالك ، فإنك بالمراقبة ترتقي إلى المشاهدة ، وبالمشاهدة ترتقي إلى المعاينة .

والمراقبة : ملاحظة الحق تعالى عند كل شيء ، مثلًا إذا لاحظته حال قصد النفس الوقوع في المعصية ، وجدته تعالى مطلعًا عليك ، فترجع عنها حياء منه ، وإذا لاحظته حال أكلك ، وجدته تعالى هو الذي ساق إليك ذلك الطعام من غير حول منك ولا قوة لك ، ثم وجدته حرَّك يدك إلى تناوله ، وجعل فيك القدرة على رفعه لفمك ، ثم حرَّك فمك ، وأجرى فيه الريق ، ثم خلق فيك قوة اللذة ، فساقه إلى المعدة ، ثم رتَّب على ذلك قوة في جسمك وربَّاك ، فجعل منه للحم نصيبًا ، وللعظم نصيبًا ، وللعصب نصيبًا ، وما فضل مما لا منفعة فيه أخرجه ، فتعلم بذلك أنه لا فاعل سواه .

فإذا قوي هذا المعنى فيك سُمِّي : وحدة الأفعال ، وصرت مشاهدا للَّه في



كل شيء ، فإذا قويت هذه المشاهدة حتى غبت عما سوى اللَّه سُمِّيت : معاينة ووحدة الذات ، فإذا زاد التمكين شاهدت بعد ذلك أنه خالق لعبده وما عمل ، وهذا معنى قولهم : مشاهدة اللَّه قبل كل شيء .

وهذه أمور ذوقية من وراء طور العقل ، لا يعرفها إلا أهل العنايات والنفوس القدسية رضي اللَّه عنهم وعنا بهم .

أداب السالكين :

ومن آداب هذه الطائفة التي يحصل بها الكمال ملازمة الطهارة ، والنوم عليها .

وعدم كشف العورة المغلظة في الخلوات حياء من اللَّه ومن الملائكة .

ومنها : توقير الكبير ، والشفقة على الصغير ، والأرامل والمساكين ، بل على جميع الخلق .

ومنها : الأدب مع أهل العلم خصوصًا خدمة الشريعة ، ومشايخ الطرق فإنهم ورثة الأنبياء .

ومنها : أن لا يزور أحدًا من الصالحين ما دام تحت التربية قبل الكمال خوفًا من أن يرى كرامة أو خَلقًا في أحدهم لم يره في شيخه ، فيعتقد في شيخه النقص ، فيحرم مدده .

ومنها : سوء الظن بنفسه ، وحسنه بغيره ، حتى يرى أن كل أحد أحسن منه حالًا .

ومنها : أن لا ينتصر لنفسه في أمر .

ومنها : أن يرى عبادته دائمًا قد دخلها الخلل من الرياء والخواطر الرديَّة ، ومثلها يستحق عليها العقاب ، لولا مسامحة اللَّه تعالى له ، فيستغفر من عبادته ،



ومن استغفاره .

ومنها : أن لا يتكلم بكلام العارفين من : الفرق والجمع ، والفناء والبقاء ، ما لم يكمل على أن الأولى للكامل ترك ذلك إلا لحاجة تقتضي ذلك .

ومنها : محاسبة النفس على ما ارتكبته من المحرمات ، والمكروهات ، وفضول المباحات ، وعلى ما وقع في نفسه من الخواطر النفسانية ، والشيطانية ، والاستغفار منها .

أنواع الخواطر :

والفرق بين الخاطر النفساني والشيطاني أن ألأول يكون بإلحاح على المعصية أو الشهوة كالطفل الذي يلح على أمِّه حتى تعطيه ما يريد ، فيجب قمعها عن ذلك بملازمة الذكر ، وبيان عاقبة هذا الأمر ، والتوجه إلى الشيخ .

والثاني يكون من غير إلحاح ، بل يأمر بالمعصية ويزينها ، فإن طاوعه الشخص ، وإلا انتقل لآخر ، لأن قصده الغواية على أي حالة تكون ، لا معصية بخصوصها .

وأما الفرق بين الخاطر الرباني والخاطر الملكي : أن الأول ما فيه تنبيه على الخير من غير حث ، ولا يؤدي إلى حيرة ، والثاني : ما فيه حث على الطاعة(١) .

ومنها : مدح أعدائه ، وعدم التكدر من ذكرهم والدعاء لهم بالمغفرة والتوفيق .

ومنها : الدعاء لعصاة المؤمنين كذلك .

ومنها : مطالعة كتب القوم ليتعلم منها الأدب ، ويعرف منها حال أهل الله

---

(١) وقيل : الخاطر النفساني : ما يلزم معصية بعينها . والشيطاني : ما يلزم معصية لا بعينها . والرحماني : ما يلزم طاعة بعينها . والملكي : ما يلزم طاعة لا بعينها .



تعالى . فبالآداب ترتقي إلى مقام الأحباب أنشدنا شيخنا :

مـا وَهَـبَ الـلَّـهُ لامرئ هبـة   أحسـنَ مـن عـقـلِه ومـن أدبِـه
هُـمَـا حـيـاةُ الفتى فإن عُـدِما   فـإنَّ فـقـدَ الـحـيـاةِ أجـمـلُ بـه

فإذا جاهدت النفس بما مرَّ ، هان عليها إن شاء اللّه تعالى الخلوص من ظلمة الأغيار ، وتبدَّلت ، صفاتها المذمومة بالصفات الممدوحة ، فيخلع الحق تبارك وتعالى عليك خلع الأخلاق المحمدية من الحلم والعلم ، والشفقة والرأفة ، والخضوع والزهد ، والورع والسخاء ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق كما أشرت إلى ذلك بقولي (**لترتقي معالم الكمال**) أي إلى معالم هي الكمالات ، وهي الأخلاق المحمدية ، وحينئذ يكون هذا العبد خليفة اللّه في أرضه .

وعلامة زوال الرعونات البشرية من القلب والتحلي بالأخلاق المرضية أن يستوي عنده المدح والذم ، والمنع والعطاء ، وإقبال الناس عليه وإدبارهم ، بل يرجح الذم والمنع والإدبار على مقابلها .



تضرع ودعاء

● النَّظم :

٦٨- وقلْ بذلٍّ رَبِّ لا تقطعني	بقاطعٍ عنك ولا تَحْرِمني

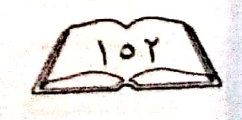
٦٩- من سِرِّك الأبهي المزيلِ للعَمَى	واختمْ بخيرٍ يا رحيمَ الرُّحَمَا

● الشــرح :

(**وقل**) متضرعًا إلى ربك قولًا ملتبسًا (**بذل**) فإن اللّه تعالى عند المنكسرة قلوبهم يا (**رب لا تقطعني * عنك بقاطع**) من كل فتنة يشتغل القلب بها عن العبودية من حب المال، والولد، والجاه، والشهوات، ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن: ١٥]، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ﴾ الآية [آل عمران: ١٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

ومن القواطع الكبر والحقد والرياء والعجب ومنها العبادة لأجل حصول ثواب، أو حصول فتح لدنّي، ليكون من أولياء اللّه، وإنما شأنهم أن يعبدوا اللّه تعالى لذاته، وامتثالًا لأمره ونهيه، ثم إن حصل لهم فتح فذلك من فضله، وإن حُجِبوا، فذلك من عدله، إذ ليس للعبد على مولاه حق، وإنما الحق له تعالى على العبد، فالعبد مطلوب بأن يخلص نفسه من الرعونات النفسيَّة، وليس على اللّه تعالى أن يهبه المعارف القدسيَّة، والذي يعبده لذلك معدود عندهم من عبيد السوء الذين إذا لم يؤجروا لم يعملوا، وهذا ينافي كونه عبدًا محضًا.

قال العارف باللّه تعالى ابن عطاء اللّه السكندري في الحكم: تَشَوُّفك إلى



ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حُجِبَ عنك من الغيوب .

لا يقال : إذا كانت العبادة لأجل الفتح من القواطع ، فكيف يصح أن تأمره بطلبه بقولك :

وقل بذلٍ : ربِّ لا تقطعني * عنك بقاطع ؟

لأنا نقول : طلب الفتح من فيض فضل اللّٰه تعالى لا في مقابلة شيء لكن مع الاستقامة أمر مطلوب شرعًا . كطلبك منه سعة الرزق ، وصحة البدن ، والشفاء من الأمراض الحسيَّة ، ألا ترى أنه أوجب عليك طلب الهداية في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة في قوله تعالى : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة : ٦] ، وطلب منك ندبًا غير ذلك في النوافل كثيرًا بلا حد ، وهذا غير العبادة لأجل حصول شيء ، فإنها ليست طريق المقربين فافهم .

(و) قل بذل يا رب (**لا تحرمني**) بفتح التاء من حرم أو بضمها من أحرم بمعنى منع أي لا تمنعني (**من**) إعطاء (**سرك**) المراد به النور الإلهي الذي يفرق به العبد بين الحق والباطل في نفس الأمر المشار إليه بقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال : ٢٩] أي نورًا في قلوبكم ، تميزون به بين الحق والباطل على ما هو عليه في نفس الأمر (**الأبهى**) أي الأنور من كل نور .

فإن علم اليقين وهو معرفة الأشياء بالبرهان نور ، وأنور منه : حق اليقين ، وهو معرفتها بالمشاهدة من غير مخالطة وممازجة ، وأنور منه عين اليقين ، وهو معرفتها بالمخالطة والممازجة ، فليس من استدل على وجود نار برؤية الدخان كمن شاهدها على بُعْدٍ ، وليس من شاهدها كمن خالطها ، وعلم وقودها وما هي عليه (**المزيل للعمى**) يعني الجهل .

وفي كلامه إشارة إلى أن الدعاء ينفع وهو مما لا شك فيه عند أهل الحق ، والقرآن العظيم مشحون به ، وهو في السُّنَّة أكثر من أن يُحصى خلافًا للمعتزلة .

ويجب أن لا يكون بممتنع عقلًا أو شرعًا أو عادة ، وينبغي أن يكون مصاحبًا للذل والانكسار ، وأن يكون في الأوقات الشريفة كالأسحار ، وعقب الصلوات ، وأن لا يكون فيه تحجير على اللَّه تعالى ، كأن يسأل قضاء حاجة بخصوصها في هذا الوقت بعينه مثلًا ، ما لم يشتد الكرب كالخلاص من ظالم مثلًا .

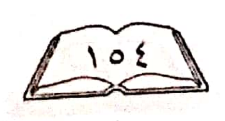
ثم إن الدعاء في ذاته هو مخ العبادة ، لأن فيه إظهار الفقر والفاقة إلى اللَّه تعالى ، وأن اللَّه هو الغني القادر على كل شيء ، وإن لم تحصل استجابة وعدم حصول الإجابة إما لتخلف شرط ، وإما لعلم اللَّه أن عدم الإجابة خير له أو غير ذلك .

(و) قل بذل يا رب (**اختم**) لنا أعمالنا وأحوالنا وأعمارنا (**بخير**) حتى لا تقبضنا إليك إلا على أتم حالات التوحيد على شوق إليك ، ورغبة فيك ، واقبض أرواحنا بيدك ، وبدل سيئاتنا حسنات وخذ بأيدينا عند العثرات . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين (**يا رحيم**) أي يا أرحم (**الرحما**) فيه إشارة وتلميح إلى قوله ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[1] . ولا يخفى ما في الكلام من حسن الاختتام هذا .

وأقول متمثلًا بقول صاحب البردة :

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد ، وأحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وقال : حسن صحيح . كشف الخفا ١/ ١١٩.



استغفرُ اللَّهَ مِن قولٍ بلا عملٍ لقد نَسَبْتُ به نَسْلًا لذي عُقُمِ[(١)]

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به وما استقمت فما قولي لك استقم[(٢)]

نعوذ باللَّه من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ومن الطمع في غير مطمع ، وجَّهنا إليك مطايا الآمال ، فلا تحرمنا لذة الوصال ، واحملنا على مطايا التوفيق ، واسلك بنا أنفع طريق ، إنك أنت الجواد الكريم ، الرءوف الرحيم .

❁ ❁ ❁

---

(١) أي نسبت ذرية لمن لا يولد له ، أي القول بلا عمل ، وهو من باب : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ . يقول المصنف ذلك تواضعًا ومسكنة إلى اللَّه .

(٢) أي أمرت بالشرع ولم أتبعه . يقوله هضمًا لنفسه ، والاستفهام إنكاري .



الخاتمة

● النَّظم :

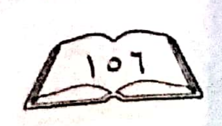
٧٠- والحمدُ للَّهِ على الإتمامِ وأفضلُ الصلاةِ والسَّلامِ

٧١- على النبيِّ الهاشميِّ الخاتمِ وآلِه وصحبِه الأكارِمِ

● الشرح :

ولما كان تأليف هذا الكتاب ، والإقدار عليه من نعم اللَّه تعالى ، وكان شكر المنعم واجبًا ختم كتابه بحمد اللَّه تعالى بقوله (**والحمد للَّه على الإتمام**) لهذا الكتاب ، ولما كانت كل نعمة وصلت إلينا ولا سيما نعمة علم التوحيد ، فهي بواسطته عليه الصلاة والسلام ، وجب عليه أن يصلي عليه ﷺ بقوله : (**وأفضل الصلاة والسلام**) أي وأعظم أنواع النعم والتحيَّة من رب البريَّة (**على النبيّ**) أي المخبر عن اللَّه تعالى بطلب التوحيد وعبادة الواحد العدل في جميع الأمور بما يئول إليه عاقبة أمر الممتثل ، وعاقبة أمر المخالف (**الهاشمي**) نسبة لهاشم جد أبيه عليه الصلاة والسلام (**الخاتم**) أي المتمم للأنبياء والمرسلين (**و**) على (**آله**) أي أتباعه (**و**) على (**صحبه**) عطف خاص على عام (**الأكارم**) جمع أكرم فقد جادوا بأنفسهم في نصرة اللَّه ورسوله مع ما اشتملوا عليه من الأخلاق الحسنة والرأفة والرحمة .

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ [الفتح : ٢٩] ، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] ،



رضي اللَّه عنهم وعنا بهم آمين وسلام على المرسلين ، والحمد للَّه رب العالمين .

أنهاه مؤلفه عفا اللَّه عنه في شهر جمادى الأولى سنة سبع وسبعين ومائة وألف من الهجرة النبويَّة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام[1] .



---

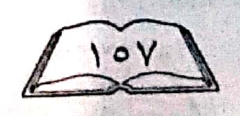
(١) وكان الفراغ من إعداده للطبع مع فجر السادس عشر من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل السلام .

البدرشين في الخميس ٢٦/٨/٢٠١٠

كتبه

د . محمد ربيع محمد جوهري رفاعي

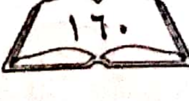
عفا اللَّه عنه بمنّه وكرمه



فهرس الكتاب



❁ ❁ ❁



هذا الكتاب

كان شيوخ الأزهر - قبل صدور قانون تطويره رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ عند وضعهم المناهج الدراسية التي يربون عليها طلابه الراغبين فيه من جميع أقطار الدنيا فى : جامعه ، ومعاهده ، وكلياته - يحظون بخبرة عظيمة فى هذا المجال.

وقد منحهم الله عز وجل - ببركة صلاحهم وتقواهم - من نور البصيرة ما جعلهم يحسنون إختيار كتب التراث التى ستدرس في كل مرحلة بما يتناسب مع النمو العقلى لطالب كل علم ، ومع التدرج التحصيلى لكل مرحلة من مراحل الطلب.

فنبغت العقليات الأزهرية الموسوعية . التى أضاءت العالم الإسلامى علماً ومعرفة ، وخلقاً وقدوة.

وفى مجال (علم التوحيد) كان يرى هؤلاء الخبراء الجهابذة أن كتاب (الخريدة البهية) لسيدى أحمد الدرديرى خير ما يبدأ به طالب هذا العلم والكتاب يكاد يشمل جميع موضوعات (علم التوحيد) بأسلوب سهل وعبارات منيرة مشرقة لا يطالعه أحد إلا ويعيش فى جو روحانى جميل.

وبعد أن أنهي مؤلفه - رحمه الله - موضوعات علم التوحيد ، شفعه بموجز واف عن (علم التصوف) أيماناً منه بأن العلم لابد أن يعقبه العمل.

فعرف علم التصوف ، وذكر آداب السالكين إلى الله تعالى،

وشرح أصول الطريق الصوفي .

فمن أراد نهج هؤلاء الشيوخ الأفذاذ ، فليقرأ هذا الكتاب

المؤلف